

مَنْشُورَاتُ اِبْحَاثِ اَمْعَةِ اَلْبَنَانِيَّةِ

قِسْمُ الدِّرَاسَاتِ التَّارِيخِيَّةِ

٢

بَشِيرُ

بَيْنَ السُّلْطَانِ وَالْعَسْكَرِ

١٨٠٤ - ١٨٤١

لِلدُّكْتُورِ اِسْمَاعِيلِ
اِحْدَاثِ اَيَّادِ التَّارِيخِ فِي اِبْحَاثِ اَمْعَةِ اَلْبَنَانِيَّةِ

اَلْقِسْمُ اَلْاَوَّلُ
اَلطَّبْعَةُ اَلثَّانِيَّةُ



بَيْرُوتُ

١٩٦٦

كلمة المؤلف

قضت ظروف الاتراك العثمانيين بفتح يسير . فاكتفوا بالطاعة والضرائب . ولم يتدبروا للقيام بمهام الحكم من ابناء جنسهم سوى اكبر كبراء الموظفين . فجاء فتحهم قليلاً ضعيفاً . وبقيت شؤون الاقطار الشامية في معظمها على ما كانت عليه قبل الفتح .
ونحاز اللبنانيون عن المماليك في اثناء الفتح ، او قبله ، ومالوا الى الاتراك . فنالوا بذلك امتيازات في الحكم لم يتمتع بها غيرهم من بين طوروس وسيناء . فكان على الولاة العثمانيين بعد ذلك ان يعترفوا بحكومة لبنانية تدير شؤون لبنان الداخلية بزعامة امير لبناني معني ثم شهابي .

وكان للحكومة العثمانية ان تنحط سريعاً وتدهور . وكان لحكامها في الولايات ان يعنوا بكل ظاهرة من ظواهر الحكم ، ما عدا العدل والامن . وطعموا في لبنان ، ولاسيا في « بقاعه العزيز » فردّوا على اعقابهم خائبين . ووقع احدهم (مصطفى) اسيراً في مجدل عنجر . وفرّ غيره (كنج) من مركز ولايته دمشق ، لدى وصول اللبنانيين اليها . وفاوض ثالث (درويش) صاغراً .

وتزعت نفس فخر الدين الثاني الى الاستقلال التام . وفاوض في ذلك واستعدّ له . ولكن الحظّ لم يسعده ، فباء بالفشل . ولم تسمح ظروف الشهابيين الداخلية بشيء من الاهتمام بالاستقلال قبل ايام بشير الثاني . ورأى هذا الشهابي الكبير بثاقب نظره ان لا فائدة تترجى من الاتراك العثمانيين وسلطنتهم . ولمس في الوقت نفسه عبقرية محمد علي لمس اليد ، فاتصل به في مصر ، وفاوضه في تحالف لا تزال نجهل تفاصيله حتى ساعتنا هذه . ثم خرج الاثنان معاً على السلطان ، وتعاونوا تعاوناً وثيقاً . وكان لبنان آنشدّ يقدم الى ساحات الوعي اكبر العناصر العسكرية

المحلية عددًا ، واشدّها بأساً ، واحذقتها يدًا في استعمال السلاحين الناري والابيض . فرجحت كفة العزيز في سورية وفلسطين وتوابعهما في اثناء الحرب الاولى بين العزيز والسلطان . وتمكن العزيز ، بفضل الشهابي ورجاله ، من اخماد الثورات في فلسطين ، وفي الاردن ، ومناطق عكا ، والعلوين .

ثم التبس على العزيز وجه الصواب ، فتدخل في شؤون اللبنانيين . وطلب منهم سلاحهم ، ثم ابناهم للخدمة في جيشه . فرأوا في هذين الامرين محاولة جدية لسلب حرياتهم . فنفروا منه واذاقوه الامرين في حوران اولًا ، ثم في وادي التيم ، فكسروا ، والمثن . وتدخلت الدول ، واضطر محيي مصر بعد ذلك الى ان يعود الى بلاده ، وان ينكمش على نفسه فيها . وخسر لبنان بشيخه الثاني . ودخل في دور من الفوضى لم ينته قبل السنة ١٨٦١ . ولكنه دافع عن الحرية ، والكرامة ، والصدق ، والامانة ، ونجّره مع العزيز على السلطان اولًا ؛ ثم بصموده في وجه العزيز نفسه واكراهه على العودة الى مصر . وحافظ بعمله هذا على حرمة الشخص البشري ، على هذه الانسنة التي لا يزال يباهي بها حتى يومنا هذا .

اسد رستم

لفظ الجزار أنفاسه في ربيع السنة ١٨٠٤ فتنفس اهل « بز الشام » الصعداء حامدين المولى على انتهاء دوره وتبارى شعراؤهم في تأريخ هذا الفرج بعد الشدة . فقال شاعر العصر في لبنان آنشد :

يا آل بز الشام بشراكم فقد	مات الذي انشا المظالم وانتك
اخائن الغدار سفك الدما	من كان في قتل النفوس قد انهمك
عكا تنادي اللطف يا مولاي من	هذا الظلوم فكم دم في سفك
بل كم يتيم في الوري وينيمة	منه وم في الحي ارملة ترك
لا يرحم الرحمن تلك الروح ما	دار المدار وطال ما دار الفلك
لما احتسى كأس المنية واصطفى	دار اللظى ومع الرجيم قد اشترك
انشدت مسرورا وبالتاريخ جا	هو ذلك الجزار احمد قد هلك ^(١)

وبوفاة الجزار بعد زوال ظاهر العمر من قبله عاد الى لبنان نفوذه لا بل سيطرته على مقدرات بز الشام السياسية . ويرجع هذا النفوذ الى عاملين اساسيين اولهما قوة لبنان العسكرية والثاني شخصية اميره ومدبر اموره بشير الثاني الشهابي الكبير .

(١) نسب الامير احمد الشهابي المؤرخ (لبنان في عهد الامراء الشهابيين ، طبعة رسم والبستاني ، بيروت ١٩٣٦ ، ج ٢ ص ٤١٠) هذه الايات الى الملم نقولا الترك ، شاعر الامير بشير الكبير . على اضا وردت في احدى نسخ ديوان الترك منسوبة للشاعر الياس اده . (راجع ديوان الملم نقولا الترك ، طبعة فؤاد افرايم البستاني ، بيروت ، ١٩٤٩ ، ص ١٧٢) .

الفصل الاول

لبنان

١٨٠٤ - ١٨٣٢

مقدمة
كان لبنان لا يزال ينعم بنظام داخلي خاص منذ الفتح العثماني . وقد قضى هذا النظام بتوحيد جميع الاراضي اللبنانية في شخص امير لبناني ينتمي الى اسرة لبنانية معينة دون سواها : المعينين اولاً ثم الشهابيين . وشملت الاراضي اللبنانية اجزاء معينة من ايالات صيدا وطرابلس ودمشق دُعيت معاملات . فمعاملة صيدا اللبنانية بدأت عند مصب نهر الاولي بالقرب من صيدا وانتهت عند جسر روماني قديم شمالي جونية دعي جسر المعاملتين لانه كان الحد الفاصل بين معاملة صيدا وبين معاملة طرابلس . وشملت هذه المعاملة الثانية جميع ما وقع بين جسر المعاملتين وبين نهر البارد شمالي طرابلس . ودخل في لبنان ايضاً اكثر سهل البقاع وبعلبك وجميع المنحدرات الغربية من جبل الشيخ بما فيها حاصبيا وراشيا حتى اصبح الحد الفاصل بين لبنان وبين حكومة دمشق مقلب المياه في اعلى جبل الشيخ^(١)

مكرونة
وكان الامير الحاكم يجبي الضرائب ويوردها في حينها ويؤمن البعاد ويقضي بينهم . وكان لاعيان البلاد حق انتقاء الاسرة الحاكمة كما جرى عند انقراض

(٣) اخبار الاعيان للشيخ طنوس الشدياق ص ١٩ - ٣٣ ، والمحفوظات اللبنانية في المتحف اللبناني .

المهين سنة ١٦٩٧^(٦) وحق التشاور معها فيما يعود لمصلحة الكل . ومثال ذلك ما جرى في السنة ١٧٨٨ بين الامير الحاكم الامير يوسف الشهابي وبين اعيان البلاد . قال الشيخ طنوس الشدياق : « وفيها ركدت همه الامير واطهر له الاكابر الجفاء . وكان بنو جنبلاط يتفرون الناس منه ويشتمون عنه اخبار الوهن . فاستصوب التنازل عن الولاية وجمع اكابر البلاد وذكر لهم عجزه عن القيام بحق الولاية وما بينه وبين الجزائر من المشاحنة واطلق لهم ان يختاروا لهم والياً اخر غيره من الامراء الشهابيين اللبنانيين فاختاروا الامير بشيراً ابن الامير قاسم عمر . وكان الجزائر يميل اليه ويرغب ان يحمله والياً وله معه الدسايس والرسايل . وكان بين الامير بشير والفئة الجنبلاطية مخالفة وعمود . فاحضره الامير يوسف واثار اليه بان يتوجه الى الجزائر ويتوشح بملجعة الولاية على البلاد »^(٧).

وكان بشير هذا اشقر اللون معتدل القامة طويل اللحية نحيفاً اقنى الانف طويل اشهل العينين . وكان بشهادة خصم له عاقلاً عادلاً حليماً شجاعاً فاضلاً كريماً شهماً يقطعاً فظناً صادقاً رزيناً حزمياً جباراً فاتكاً صبوراً غيوراً^(٨) . وقد حكم لبنان من دير القمر اولاً ثم بنى لنفسه قصرًا على هضبة تطل عليها في بتدين . وكانت داره هذه كثيرة النفتات . حيث يتفق كل يوم على الف وخمماية راس خيل شعيراً وعلى بيته غرارة ونصفاً حنطة وثلاث قفات ارزاً وقنطاراً للحمأ . وعنده بين خدم وخاصة نحو الف رجل^(٩) . وكان عند الملأت اقوى حكام بر الشام قاطبة يتزل الى ساحة الوغى ما لا يقل عن عشرة الاف رجل كما صرح بذلك هو نفسه الى العزيز في مصر^(١٠) . وكان هؤلاء الفرسان اشجع فرسان بر الشام واقدرهم رماية بالرصاص وضرباً بالسيف . وكانت اسلحتهم النارية متنوعة منها الفرد والجت وهو ذو طلقين والددارة وهي صغيرة تملق على الجب ومثلها الطنبجة والفرد . اما القرينة فانها كانت بندقية متينة واسعة الفوهة تحشى بالرصاص . ومنها الزربطانات والشرخانات وبنادق الحُرنة وهي اشبه بالمدافع الصغيرة توضع على مرفع عند اطلاقها . وكان لدى الامير نفسه بندقية خاصة اهداها اليه عبدالله باشا بعد حصار دمشق اعترافاً بفضله . وهذا ورثها عن سلفه سليمان باشا وقد ارسلها اليه هدية نابوليون الاول سنة ١٨٠٥ « طاقها ذهب وحديدتها انعم من القطيفة وطوله

(٣) لبنان في عهد الامراء الشهابيين ج ١ ص ٣-٥ .

(٤) اخبار الاعيان للشدياق ص ٤١٩-٤٢٠ .

(٥) اخبار الاعيان ايضاً ص ٦٤ .

(٦) مذكرات رسم باز (طبعة فؤاد افرام البستاني ، في منشورات الجامعة اللبنانية ، ١٩٥٥) .

(٧) محمد علي باشا الى عبدالله باشا (١٨٢٤) : المحفوظات الملكية المصرية ج ١ ص ٥٩ .

ذراعان ونصف الذراع»^(٨). واشهر سيوف اللبنانيين آنذير سيف الصاعقة للامير بشير نفسه. وكان مرصعاً بالجواهر وغمدته من الذهب الابريز مرصع بالجواهر ايضاً وقد اهدته قرينته بعد وفاته المغفور له اسماعيل باشا الحديوي. وسيوف رجاله قصيرة عريضة قليلة الائمنا. تساندها الحناجر والسكاكين والشاكريات والفؤوس والبلطات والكلنكات^(٩).

وكان لبنان لا يزال منظماً تنظيمياً اقطاعياً. للامير الحاكم ان يولي من شاء من رجال الاقطاع ويغزل من شاء ولكنه لا يخرج في ذلك عن افراد الامرة الموجبة بالاقطاع. ورجال الاقطاع هؤلاء. امراء ومقدمون وشيوخ. اما الامراء. فهم الشهابيون والارسلانيون واللميون الدرور^(١٠) والحرافشة وهم من الشيعة. والمقدمون هم من آل مزهر وهم دروز ايضاً. والشيوخ دروز ونصاري وشييون منهم بنو جنبلاط وبنو تلحوق وبنو الخازن وبنو حيش وبنو غازار وبنو حماده. وكان لرجال الاقطاع امتيازات تجب مراعاتها فلا يقتل احدهم ولا يجبس ولا يضرب. واذا اذنب يكون قصاصه غالباً بمصادرة املاكه او بنفيه من البلاد. واذا دخل المذنب منهم على الحاكم يقابله على عادته في التحية والسلام ولا يهينه واذا كتب اليه كتاب الغضب لم يغير شيئاً من القابه وكراماته ولكنه يترك عبارات الولا. ويثبت ختمه في اعلى الصحيفة وعلى وجهها. اما كتاب الرضى فيكون ختمه على ظهر الصحيفة^(١١). وكان الاقطاعيون يتصرفون في مقاطعاتهم بتنفيذ اوامرهم ويجبون الاموال المفروضة على الاعناق والارزاق فيرسلون منها الى الحاكم ما فرضه عليهم او ما تهادوا عليه والباقي يكون لهم لتفقاتهم الادارية والحربية. واذا رفع احد الرعايا دعوى فالى الاقطاعي واذا لم ينصف ترفع الدعوى الى الحاكم الاعلى فيفاوض الاقطاعي لفصلها بما يريد. فاذا لم تقض يسوغ ان ترفع اليه الشكوى اكثر من مرة فيرسل مباشراً من قبله يفصلها بالتي هي احسن ولا يكون للاقطاعي عتب عليه. واذا حدث خصام بين الاقطاعيين وبين الاهلين يفاوضهم الحاكم كتابة ثم يرسل من خاصته من يصلح ذات الحال تكون نفقاته ونفقات جواده على المدعى عليه ولا ينصرف الا بامر مولاه. والاقطاعيون يسمح لهم ان يحكموا بالسجن والضرب ولكن العقاب على الكباثر لا يؤذن به الا للحاكم الاعلى. وجميع انساب الحاكم

(٨) تاريخ سليمان باشا لبراهيم العمرة ص ٦٩-٧٠.

(٩) دواني القطوف لبني العلوف ص ٢٥٩-٢٦٠.

(١٠) راجع في شأن نصير بعض هؤلاء الامراء. مجلة «الشرق» ١٨ : ٥٤٣ : ٤٣١ : ٤٩٦.

(١١) دواني القطوف لبني العلوف ص ٢٤٨.

يكونون تحت حكمه وادارته مباشرة . ويقع تحت حكمه المباشر أيضاً سكان دير القمر وعمارون وعين داره ونيحا وبتلون^(١٢) .

وقضى الخوض للسلطان بتقبل احكام نواب الشرع في طرابلس وبيروت وصيدا . ولكن سلطة هؤلاء الفعلية قلما تناولت ابناء لبنان . فالامير كان ينفذ قرارات شيخه العقل في بتدين وعمارون في الاحوال الشخصية الدرزية^(١٣) وفيما يعرض عليها من الدعاوى الحقوقية . وكان بطاركة النصارى ما لهدين من الصلاحيات القضائية . وكان الامير ايضاً يجري احكام قاض درزي اخر يعينه هو ويجلس للقضاء في الدعاوى الحقوقية في دير القمر^(١٤) وينفذ احكام قاض خاص ينظر في الدعاوى العقارية هو الشيخ احمد تقي الدين يعاونه اختصاصي في فن البناء « مدير الاشغال » لدى الامير المعلم رستم مجاص الشويري^(١٥) . اما الدعاوى الجزائية فانها كانت من اختصاص الامير الحاكم ورجال الاقطاع كما مر بنا . وكان الموارنة منذ القدم يعتبرون بطاركتهم واساقفتهم قضاة زمنيين يرجعون اليهم في اكثر دعاويهم الحقوقية والجزائية علاوة عن الاحوال الشخصية . وكان لدى هؤلاء الرؤساء الروحانيين مدنية بجهة مقتبسة من الشرائع الرومانية والشريعة الاسلامية يقضون بموجبها . من ذلك كتاب الهدى للمطران داود وكتاب التاموس وغيرها^(١٦) . ولذا فاننا نرى الامير بشيراً يكلف المطران جبرائيل الناصري الماروني ان يعنى بسماع دعاوى الموارنة وان يفصل فيها بالعدل والانصاف . ويظهر من ملفات القضاء في المحفوظات اللبنانية – المتحف الوطني اللبناني – ان هذا المطران كان قاضياً دواراً يقصد قري الموارنة تبعاً فيسمع الدعاوى التي ترفع اليه ويحكم بها .

وأحب الامير الكبير ان يعدّ قضاة اكفاء يعتر القضاء بهم فانتقى بعد التداول مع البطريرك يوسف جبيش شابين لبنانيين من خيرة شباب ذلك العصر هما الشيخ بشارة انطون

(١٢) في المحفوظات اللبنانية في المتحف الوطني ما يؤيد كل هذا . راجع ايضاً دواني القفوف لمبسي المؤلف ص ٢٤٨ .

(١٣) الشيخ حسن تقي الدين في بعلين والشيخ حسين عبد الصمد في عمارون .

(١٤) الشيخ شرف الدين القاضي والشيخ محمد القاضي .

(١٥) راجع سجل الشيخ احمد لدى حفيده الشيخ عادل تقي الدين وارواق المؤلف عن جده رستم .

(١٦) الطائفة المارونية للمطران يوسف دربان ص ٣٠٢-٣٠٥ . وللاستاذ الدكتور ابراهيم عواد

كتاب خاص في هذا الموضوع *Le Droit privé des Maronites* . طبع في باريس سنة ١٩٣٣ .

وراجع ايضاً كلام قنصل فرنسة في بيروت آنتز : *HENRI GUYS, Un séjour de plusieurs*

années à Beyrouth et au Liban, II, 138-140.

الحوري والحوري يوحنا الحبيب وارسلها الى بيروت لدرس الشرع على الشيخ احمد الاغر والشيخ يونس البري سنة ١٨٣٧ . وفي السنة التالية دفع بها الى طرابلس للغاية نفسها . ولدى عودتها منها في اواخر السنة ١٨٣٩ ابقى الشيخ بشارة قاضياً لديه في بتدين واقام الحوري يوحنا الحبيب قاضياً في جونيه .

اهزابه السياسية . ولم يُقم اللبنانيون للطائفية وزناً في تحزباتهم السياسية . قال الشيخ طوس الشدياق صاحب كتاب اخبار الاعيان : « سنة ١٧٨٨ توفي الشيخ عبد السلام الهاد وكان عاقلاً فصيحاً جداً حتى ضرب المثل بفصاحته وصارت مناظرة بينه وبين الشيخ علي جنبلاط ادت الى المشاحنة فانقسمت طائفة الدروز الى قسمين جنبلاطي ويزبكي . غير ان المشايخ التكديين لم يدخلوا في هذا الانقسام . وعمّ هذا الانقسام الاسراء الشهابيين واللعين والنصارى اللبنانيين . وصار اسم يزبكي علماً جنسياً لبني عماد وبني تلحوق وبني عبد الملك ومن والاهم . وكان زعيم اليزبكية بنو عماد وزعيم جنبلاطية بنو جنبلاط^(١٧) . نقول لقد عمّ هذا الانقسام الحزبي جميع اللبنانيين في عهد بشير الثاني على باختلاف طوائفهم وشمل السنة في هضاب صيدا والشيعه في كسروان وبلاد جبيل . ولم يخرج عنه سوى بني نكد الذين آثروا ان يلعبوا دور « بيضة القبان » بلغة ذلك العصر . ولم يزل ذلك في عهدنا بين الدروز . وما زال بين النصارى حتى اوائل القرن العشرين . وحدث مثل ذلك من قبل بين الشراويين وبين الصمدين في قرية عماطور وما جاورها من الشوف . كما جرى بعده في عهد القائميتين في المتن بين الامير بشير عساف وبين الامير بشير احمد اللعين وعمّ النصارى والدروز ايضاً ولكنه مات بموتها^(١٨) . ولطالما دعت الحال في ذلك العهد وبعده الى انقلاب بعضهم من حزب الى آخر لاغراض في النفس تشفياً من خصوم معينين او الى انشقاق اسرة بين الحزبين كما فعل الارسلانيون والتلاحقة وغيرهما من الاسر القوية . ولم يهدف المتحزبون الى برنامج معين يطالبون به ويحاولون تحقيقه . ولكنهم قصدوا التضامن في السراء والضراء وتوخوا من جراء انضلمهم مساعدات مادية ومعنوية ضمن الحكومة وخارجها وفي جميع اوقات الضيق . وجرى مثل هذا بين اسر معينة وبقطع النظر عن الطائفة التي انتموا اليها . فاسرة البستاني المارونية في دير القمر تأخت مع اسرة حماده الدرزية في بعقلين واسرة عبد الصمد الدرزية في عماطور وكذلك بنو نمرة النصارى وبنو ابي شقرا الدروز .

(١٧) اخبار الاعيان ص ١٣٦-١٣٧ .

(١٨) لبنان ويوسف بك كرم للخوري اسطفان البستاني ص ٢٢٢-٢٢٤ .

وكثيراً ما قطع هذا التآخي حدود المقاطعات فضم اسرتين في مقاطعتين مختلفتين كما جرى بين اسرة بني حسن الدرزية في بعذران الشوف وبين اسرة بني مجاعص النصرانية في الشوير في المتن . وما يروى من هذا القليل انه عندما غرّم الامير بشير الثاني الشقراويين الدرزي في عماطور ببلغ كبير من المال وتمذّر عليهم جمعه بكامله هب « ابناء عمهم » بنو نعمه النصارى في دير القمر لدفع الباقي .

سياسة الدراغلية وكان الزعماء اللبنانيون على ما بهم من حذق ومقدرة واخلاص للوطن لا يفترون منشئين بعضهم على بعض . فالشهابيون منهم كانوا يطعمون بالحكم كل بدوره فيدسون الدسائس على من هو في الحكم منهم ويؤلبون رجال الاقطاع عليه فيقابلهم هو بالمثل وتم الفتنة البلاد باسرها . وان هم اخلدوا للسكينة اثارهم احد الولاة من حولهم وابتد منهم المال المستعجل والوعد بغيره . ولم ينج بشير الثاني من شيء من هذا . فانه ما كاد يستلم ازمة الحكم في البلاد حتى اضطر ان يقاتل الامير يوسف فترة من الزمن ثم الاميرين حيدرًا وقمدان الشهابيين ثم ابناء الامير يوسف فالامراء سلمان وسيد احمد وفارس فعباس الشهابيين . وطال امد هذه المزاخمة ولم تنته قبل السنة الخامسة والثلاثين من حكم بشير ا وادت الى تنازله عن الحكم احياناً ودخوله سجن عكة مرة واحدة وفراره الى حوران مرة اخرى والتجائه الى مصر .

وادرك الامير ان الامراء والاشياخ يشتغلون كل لمصلحته ولو ادى تحقيقها الى خراب عام وان لمصلحته ومصلحة لبنان تقضيان بتحطيم الرؤوس الكبيرة وتبوتيد السلطة المركزية وبالتالي يربط الشعب اللبناني بشخص حاكمه مباشرة . وكان سلفه ونسيه الامير يوسف قد شعر بذي . من هذا وبدأ بتحطيم النكديين فرأى بشير ان يبدأ بهم ايضاً . فاتفق مع الجنبلاطين والمهاديين على ذلك واستدعى اليه اولاد الشيخ كليب النكدي الى دير القمر سنة ١٧٩٧ . ولما دخلوا مجلسه خرج من القاعة واغلق الباب فاسرع الشيخ بشير جنبلاط والمشايع المادية ودخلوا القاعة وجعلوا يخرجونهم واحداً واحداً ويقتلونهم ضرباً بالسيف واكلوا خمسة . ثم ارسل الامير اعواناً الى عبيه يقبضون على اولاد الشيخ بشير النكدي ففروا واختبأوا فارسل اعواناً احضروهم اليه ووضعهم في السجن وبعد قليل دخل اليهم المشايخ المادية وقتلهم وكانوا اربعة . واما الصغار من النكديين فهربوا مع الشيخ سلمان الى دمشق . فضبط الامير املاك الجميع وابتقى له جزءا واعطى الباقي للقاتلين . ولما علم الجزار بذلك

استدعى الضار اليه وكتبوا ستة عشر ذكراً وعين لهم نفقة وابقاهم عنده^(١٩). ومنذ السنة ١٧٩٩ بدأ الامير بناوأة الهادين متكلاً في ذلك على معونة الجنبلاطين وما فتى حتى اقرهم وابعدهم عن البلاد الى وادي التيم وحوران وعكة ومصر. قال الشدياق: « سنة ١٨٠٨ سار الشيخ فارس الهاد الى مصر لضيق معاشه وتبعه الشيخ علي وتقربا الى والي مصر » وقال ايضاً: « سنة ١٨١٩ غضب الامير بشير الشهابي على اليزبكية فارسل لهم اعواناً يشقلون عليهم باللائف والملايق ففروا من البلاد وتبعهم النكدية واخيراً قدم اليهم الشيخ علي من مصر^(٢٠) ».

وبعد ان اضعف الامير الهادين عاد الى الجنبلاطين فاتهم كبيرهم الشيخ بشير جنبلاط بانه اشار على الامير حسن الشهابي ان يقتل عمه الامير حيدرًا ويتظاهر بالاسلامية فيتولى عوض الامير بشير الشهابي نفسه. ولما اعتقل الامير حسن وارسل الى عكة فالاستانة سنة ١٨١٨ خشي الشيخ بشير العاقبة وشرع يحتاط للامر فتظاهر بالاسلام وبني جامعاً له في المختاره حتى اذا قضت الظروف بوفوده على الامير قدم اليه برجال كثيرين. فبدأ الامير باضافه مالياً وطلب منه سنة ١٨٢٢ سبع مئة وخمسين الف غرش اسعافاً. فاعتذر الشيخ بشير. ولما لم يقبل الامير اعتذاره اذاهم وجلاً. ثم رحل الشيخ من المختارة الى جباع متظاهراً بانه يريد الصيد وارسل رسلاً الى الامير يستطفه برجوعه كما كان. فاجابه الامير الى سؤله وطلب منه الف الف غرش. فارتضى الشيخ بدفع نصفها. وبعد دفعه هذا النصف طلب الامير الباقي. فالتمس الشيخ تركه فلم يُجب الى ذلك. فقام الشيخ الى جباع ثانية واقام فيها ثلاثة اشهر ولما ينس قام الى البقاع فراشياً واجتمع اليه فيها بعض عناصر المعارضة من الوجوه اللعين والارسلاتين والشهابيين وقر قرارهم ان يطلبوا تولية الامير عباس اسعد الشهابي. فتوسل الشيخ بذلك الى عبدالله باشا والي صيدا ولكنه لم يفلح. وعندئذ توسل اليه ان يامر برجوعه ومن معه الى بلادهم آمنين. فاجابه الباشا الى ذلك. ولدى عودة الشيخ الى مقره في المختاره سنة ١٨٢٣ ارسل الى الامير في بتدين يستاذنه بالحضور ويطلب منه صفا. الحاطر عليه. فاجابه الى ذلك. فحضر الشيخ بنحو الف رجل ابقاهم خارج بتدين ودخل الى التصر بشرذمة منهم. فأمر الامير اعوانه وماليكه وعبيده ان يصطفوا له في صحن الدار. فرّ الشيخ بينهم وجلاً خائفاً من الضربه. ثم دخل على الامير مسترحماً

(١٩) اخبار الايجان للشيخ طنوس الشدياق ص ١٤٩-١٥٠.

(٢٠) المؤلف نفسه ص ١٤٠-١٤١.

طالباً العفو . فطِيبَ الامير قلبه وخلع عليه . ثم استاذن الشيخ وعاد الى المختاره فبلغه ان الامير تكدر من كثرة الرجال الذين اصحبهم معه الى بتدين . فحضر مرة ثانية بنفر قليل . فطِيبَ الامير قلبه ووعده بالعود كما كان . ثم كتب اعلماً بـرجوع اصحاب الشيخ الى اوطانهم والا فيقومون تحت الغضب . فانفضوا عنه . ولما فارقت احلافه خاف ونهض الى البقاع ليلاً بمايتي نفر ومعه الامراء الارسلانيون ثم انطلق الى حوران وتزل عند العرب الفطية والمسلوط . فضبط الامير ارزاقه . وبعد ذلك بقليل عاد الشيخ بشير الى اقليم البلان فبعلك وعكار . وارسل يسترضي الهاديين فارتضوا واتفقوا مع الجنبلاطين على ارجاع الشيخ الى المختاره . وخرّبوا معهم جماعة من الامراء الشهابيين واللميين . وكتبوا الى الشيخ بشير يستدعونه . فنهض من عكار الى كسروان فالمتن فالشوف ومعه عدد كبير من الرجال من الحزبين الجنبلاطي واليزبكي . ووصل الى المختاره في اوائل السنة ١٨٢٤ . ثم هجم برجاله على بعقلين فبتدين واقتل مع عسكر الامير ثلاثاً اهمها موقعة السقانية^(٢١) . ولما لم يفز بطايل انهمز بمن معه الى اقليم البلان . ولدى وصوله الى قرية مجدل شمس افترق الشهابيون عنه الى حمص اما هو واعوانه الجنبلاطيون واليزبكيون فانهم ذهبوا الى حوران . فادركهم عسكر دمشق واخذ قائده مجادهم بان يسلموا لوالي دمشق فانخدعوا . ولدى وصولهم الى دمشق امر واليا بتقطيع الشيخ علي الهادي بالسيوف وطرح الباقيين في السجن . وعندئذ طلبهم والي صيدا عبدالله باشا من والي دمشق فارسلهم هذا الى عكة وامر وزيرها مجبسم . ثم رأى ان يهدد بشيراً بهم فأخرج الشيخ بشيراً من الحبس وارسل له حلة وطيب قلبه . فبلغ الامير بشيراً ذلك . فكتب الى العزيز يخبره بواقع الامر . فكتب العزيز الى عبدالله باشا ان يقتل الشيخ بشيراً ففعل ثم قتل الشيخ امين الهادي ايضاً . وتوفي ولدا الشيخ بشير قاسم وسليم في الحبس في عكة . وهكذا تفتت الجنبلاطيون وضبط الامير جميع محاصيلهم^(٢٢) .

ورأى الامير الشهابي الكبير ان يوجد من يمثل السلطة المركزية في بعض الجهات النائية من البلاد ليشمر الاهلون بها ولكي يراقب هو عن كثب سلوك رجال الاقطاع ويجد من سلطتهم . فحصل من ابن اخيه الامير عبدالله حسن نائباً عنه في كسروان . فكان هذا ينقل اوامر الامير الى رجال الاقطاع ويسهر على تنفيذها ويساعد في حل المشاكل ويسهل جباية

(٢١) اطلب تفاصيلها في الجواب على اقتراح الاحباب لمخاتيل مشاهة - خط .

(٢٢) اخبار الاعيان لطنوس الشدياق ص ١٢٨-١٣١

راجع ايضاً كتابنا : المحفوظات الملكية المصرية ج ١ ص ٦٤-٦٧

الضرائب . ولا يزال الكثير من اوامره الى رجال الاقطاع في كسروان وبلاد جبيل محفوظاً في المتحف الوطني اللبناني في بيروت . وفعل الامير بشير مثل هذا في بلاد جبيل فعين ابنه قاسماً اميراً عليها وجعل ابنه خليلاً اميراً على البقاع . فبَ شاعر القصر يهنتها بقصيدة متوسطة سنة ١٨١٠ . ومما قاله فيها عن الامير الاب وولديه ما يلي :

كل المطالي لديه جمّة جمعت لذاك اضحى على الاشبال يقسمها
فقسمة القاسم الفضال لا برحت تملو وترداد والمولى يعظمها
كذا الملا لحليل الله ما فتئت تعاد خلقتها والفر يقدمها
يا من بانواره ازهى البلاد لذا ارخت لازل طول الدهر تحكما^(٢٣)

اما الامير امين فانه بقي الى جانب والده يعاونه في الحكم ويحل محله عند الاقتضاء ويقوم ببعض المهمات الخارجية .

وكان السفر شاقاً والطرق غير امينة . وكانت الحفارة تفرض في بعض المواضع في خان الحصين والمديرج في الطرق الجبلية وفي خان الناعمة وجونية وجبيل في الطرق الساحلية . فأبطلها الامير الكبير سنة ١٨١٢ واذن ان تسير القوافل والتجار على جميع الطرق بالامان والسلامة دون ان يفرموا بشي . فكان ذلك رحمة عظيمة للناس^(٢٤) . وكثيراً ما كان الذهاب الى دمشق من الامور الشديدة الخطر حتى شاعت بين اللبنانيين اغنية كانت تردد في الاعراس مطلعها :

ارقصي يا مليحه ارقصي ولا تبالي بدف المخشخش بنقل الجمال
جوزك يا مليحه راح عالشام وحده جوزك يا مليحه بو زيد الهلال

ولم يكن السفر في البحر شائعاً بين اللبنانيين آنذ فكانوا يخشون هوله ويقولون عن سافر الى مصر انه سيكابد اتقال السير في برين واهوال السفر في بحرین .

فاهم الامير لهذا الامر وعزم على تأمين البلاد فضرب بيد من حديد كل من أخل بالامن . وكان عظيم الهيبة وقوراً شديد البأس لا يستطيع الناظر اليه ان يتفرس فيه طويلاً . فاستتب الامن في البلاد وروى الناس ولا يزالون احاديث غريبة بهذا المعنى منها ان امرأة كانت سائرة في وادي القرن والليل حالك فالتقى بها احدهم وسالها عن مسيرها في ذلك

(٢٣) منشورات مديرية الآثار : ديوان المعلم نقولا الترك لنواد افرام البستاني ص ٢٣٥-٢٣٦

(٢٤) لبنان في عهد الاسراء الشهابيين ج ٢ ص ٥٨٠، اطلب ايضاً دواني النطوف لعيسى الملو ف ص ٢٥٧

الظلام الدامس فقالت « ان ابا سعدي سائر ممي » . وهو احد القاب الامير . ومنها ما تغنى به شاعر القصر آنثوذ :

اميرٌ مما الاسراء. قدراً وقد علا على كل والٍ في الوجود وحام
به قطرنا قد فاق بالقدر وارتقى على كل قطر في الوجود وعالم
بعدلٍ وقسطٍ وايمانٍ وراحتهِ وشرع بحجم الزور والبطل قايم
وعيشه هني ارغدٍ واستكانةِ وصفورٍ من الاكدار صافٍ وسالم
حمامٍ حمي يوقى به كل ملتجئ ويومن فيه كل خطاب مداهم
نعمٍ وسمٍ مستطابٍ ومامنٍ منبعٍ وماوى للكلمة الضراغم
فولاه ارقى سيد فاق سامياً ولاه الورى طراً وكل الاعظام
بنور شهاب الكون باهت بلادنا بشيرٍ لها في هدم طود المظالم^(٢٥)

وأصبح لبنان في حد قول هذا الشاعر « حمى يوقى كل ملتجئ » في طول بر الشام وعرضه ففي السنة ١٨٠٤ التجأ الى لبنان زعماء الانكشارية في حلب خالف وقع بينهم وبين واليها ابراهيم باشا قطر اغاسي^(٢٦) . فأكرمهم الامير وسمى للتوفيق بينهم وبين الوالي . وفي السنة ١٨١٢ وفد على الامير الشيخ حسين افندي المرادي مفتي دمشق . وكان قد وقع بينه وبين زميل له ابن المحاسنه نفور وبغضاء . وكان عدوه هذا له « قول عند سايمان باشا » فخشى حسين افندي غدره وخرج من دمشق والتجأ الى الامير في بتدين . فأكرمه الشهابي الكبير وابقاه عنده مدة من الزمن ثم وفق بينه وبين خصمه واعاده الى دمشق^(٢٧) . وفعل مثل هذا مراراً مصطفى اغا بربر متسلم طرابلس . ففي السنة ١٨٢٤ عندما أمر الباب العالي باعدامه وضبط موجوداته وازرقه التجأ الى الشهابي الكبير فاسكنه الشريكات ثم ارسله الى مصر واصحبه بالتوصيات اللازمة فأكرمه العزيز واقامه في دمياط . وفي السنة ١٨٣٣ غضب عليه ابراهيم باشا فجاء الى بتدين ملتسماً من الامير ان يستعطف خاطر الباشا عليه ففعل فاعطاه

(٢٥) الملم نقولا الترك . راجع ديوانه المشار اليه آنفاً ص ٢٦٢-٢٦٣ - واطلب في ساكان يروي عن الامير الكبير من حوادث اختلط فيها التاريخ بالاساطير ، كتاب فؤاد افرام البستاني : على عهد الامير ، بيروت ، ١٩٢١

(٢٦) لبنان في عهد الامراء الشهابيين ج ٢ ص ٤١٦

(٢٧) لبنان في عهد الامراء الشهابيين ج ٢ ص ٥٨٠ - راجع ايضاً ديوان نقولا الترك ص ١٠٥ .

الباشا الامان واعاده الى طرابلس^(٢٨) . وقل الامر نفسه عن علي بك الاسعد العسكري والامير جواد الحرفوش البعلبكي وغيرهما بما لا مجال لذكره هنا .

وارضى الامير رجال الدين على اختلاف ملهم ونحلهم فعاونوه في بسط نفوذه وسلطانه فعبى لشيخي العقل الدرزيين مالا خاصاً قدمه لها وجمعه من جميع رعاياه الدرروز والنصارى على السواء^(٢٩) . وجعل كلمة البطريرك الماروني نافذة في غالب الاحيان وعاون رهبان هذه الطائفة في تحويل بعض الاديرة الى مدارس فبذل بسطاء في هذا السبيل واستحق شكرهم وولاءهم^(٣٠) . ومن ذلك مار يوحنا مارون في كفرحي (١٨١٢) ومار انطونيوس ببدا (١٨١٥) ومار جرجس الرومي (١٨١٨) ومار يوحنا مارون صربا (١٨٢٨) ومار عبدا هرهريا (١٨٣١) ومار سركيس ريفون (١٨٣٢)^(٣١) . وما كاد يسمع في السنة ١٨١٣ باغتيال البطريرك اغايوس صروف حتى بث العيون والارصاد فقبضوا على الجناة واتوا بهم مقيدى الى دير القمر . واذ قدموهم لدى الشهائي الكبير امر بشنهم عن ذنبهم فشنقوا حالاً^(٣٢) . ولدى وفود البطريرك مكسيموس مظلوم عليه بعد انتخابه سنة ١٨٣٣ اجل الامير وفادته وقال له « كثيراً ما سرتني ارتقاء غبطتكم الى المقام البطريركي . ويحق لطائفتكم كما يحق لي ان افتخر ببلادي لانها حارة على رجل جليل الصفات عالم علامة عالي المهمة غيور نظير غبطةكم » . ثم اصدر الامير امراً باعفاء قرية عبدة ملك مدرسة عين تراز من اداء ما يترب عليها من الاموال للحكومة^(٣٣) . وادى هذا كله بطبيعة الحال الى امتنان رومة فكتب له البابا بيوس السابع في العاشر من شهر شباط سنة ١٨١٢ يشكر له عطفه على المواردنة وسماحه لهم « بالاعتراف بمجديات الايمان الكاثوليكي » دون اي مانع . وبعد ذلك بثانية عشر عاماً كتب له البابا غريغوريوس السادس عشر يشكر له حمايته التقليدية الايمان

(٢٨) راجع مجلة المباحث لجرجي بيني ج ١٤ ص ٨٨ وتاريخ سورية له ايضاً ص ٤١٨-٤٢١ . راجع

ايضاً كتابنا المحفوظات الملكية المصرية ج ١ ص ٦٢-٦٣

(٢٩) المحفوظات اللبنانية .

(٣٠) راجع ما ورد في ذيل كتاب هنري غيز المشار اليه آنفاً ج ٢ ص ٣٠٧ وهو مقال في الاوبر بشير للمسيو اوجين بوره .

(٣١) راجع محاضرة الاستاذ فؤاد افرايم البستاني في التلميم في لبنان في مجلة الندوة اللبنانية ٢٥ كانون الاول سنة ١٩٥٠ ص ١٧٣

(٣٢) ديوان الملم نقولا الترك ص ١٠٠-١٠١

(٣٣) مختصر تاريخ طائفة الروم الملكيين لمجهول طبع بيروت سنة ١٨٨٤ ص ٨٨-٨٩

الكاثوليكي ويمدح تقبله لهذا الايمان لاول مرة فنيا يظهر ويهدي اليه صليبا وايقونة^(٣٤) .
ولقد برّ رجال الدين الكاثوليكي الامير فأحسنوا الطاعة اليه ورفقوا به في ايام محنته وتحمروا
عابه كما سئرى في حينه .

واحب الامير العمران فرمم الجسور وانشأ بعضها وجلب مياه نبع الصفا الى بتدين
وعطف على العلم والادب فتقبل مبدأ التلقيح للوقاية من الجدري وشجع الناس عليه وارسل
بضعة من الشبان اللبنانيين الى مصر ليدرسوا الطب الحديث في مدرسة القصر العيني منهم
ابراهيم النجار ويوسف الجليخ وأوفد الشيخ بشارة الحوري والحوري حنا حبيب الى طرابلس
ليتفقها على اشياخها . وجمع الشعراء والادباء في ديوانه وعقد لهم المجلس ونظم ابياتاً واقترح عليهم
تحميسها او تشطيرها او اجازتها . من ذلك صدر مطلع له :
في سفح بيت الدين قد دفت الصفا^(٣٥) .

وقال المعلم نقولا الترك: «وكان سعادته في كل ليلة من ليالي الشتاء . يجمع ندماء ويساهرم
في لعب الورق الذي هو بين غاب ومغلوب من دون وضع دراهم يوزل مألها الى الربح
والخسران بل هو اقهار الغالب للمغلوب . وكان سعادته في حين تغلبه على مغلوبه يقترح على
المؤلف نظم بعض ابيات وكان له عبداً يفعل^(٣٦) . وما قاله الترك في هذه المقامة الكانونية :
« قال الحازم فهزني الغرام وهيجني الهيام ان ألج مولج الغلمان حيث انتظام الديوان . فلبثت
هنية ريثما امرت بالعبور بعد التماس الدستور . فعندما ولجت ذلك المحضر المنور رأيت صدراً
تصدر بطامة تجلج البدر اذا ابدر قد اشرفت انواره في ذلك المقام على الخاص والعام وهو
رابض كالاسد الضرغام . ورايت الخدم وقوفاً والندما صفوفاً ولديهم وريقات يلعبونها فتغلب
بعضاً وتحوّل مغلوبها انتعاشاً وقبضاً والامض على المغلوب وانكى اذا قهقه الغاب ضحكاً^(٣٧) .
ومن هنا في الارجح رغبة الامير امين في الشعر وتعلمه نظم القوافي .

سبانه الخارجية . وخذ اللبنانيون كلمتهم آنشد بوجوب الاحتفاظ بنظامهم الخاص والحفاظة
على حرياتهم فهبّ اميرهم يسعى لتحقيق رغباتهم . وانتهر فرصة وجود
الصدر الاعظم يوسف ضيا باشا في بر الشام سنة ١٧٩٩ ففاوضه في ربط لبنان بالآستانة

(٣٤) تجد نسخة عن الرسالة الاولى في المحفوظات اللبنانية والاصل نفسه للرسالة الثانية في هذه
المحفوظات ايضاً في ملف رجال الدين .

(٣٥) ديوان المعلم بطرس كرامه ص ٢١٦ و ٢٥٣

(٣٦) ديوانه المشار اليه آتفاً ص ٣٥١

(٣٧) الديوان نفسه ص ٣٥٢-٣٥٣

مباشرة ومنع تدخل حكام الايالات في شؤونه . وكان الصدر بحاجة لرضى الناصر المحلية ولا سيما لبنان ليدفع الضرر الذي لحق بالسلطنة من جراء الحملة الفرنسية على مصر « فالتقاء بكل اكرام وجهه جأ عظيماً لاجل صورته وجسارته واعدده بكل ما طابه. »^(٣٨) ووجه اليه فرماناً بذلك فقال : « وبمنه تمالي بعد توريدكم الى الخزينة العامرة المطاوب منكم تصل اليكم الفرمانات العلية والاوامر السنية المنصحة والمعلمة في تفويض البلاد اليكم وتقرير الاقلام والاماكن المرقومة عليكم حسب ما صدر الوعد منا بذلك ورفع ساير التكليف الشاقة عنكم من وزرا عظام وغيرهم ما عدا دفع قلم المبري المربوط في المقاطعات المذكورة والقلمية من قديم الزمان فتى ادبت اموال الميرة والقلمية وبدل الاتزامات كل شيء الى محله والاماكن المذكورة تكبرن تحت يدك ونظارتك. فبناء على ذلك قد صدرنا اليكم مرسومنا هذا الشريف المنح. »^(٣٩) تسلم الشهابي الكبير هذا الفرمان وبات ينتظر تنفيذه ولكن دون جدوى .

وكان في الوقت نفسه يتجنب الاصطدام بحكام الايالات المجاورة ويتعد عنهم ما امكنه . وقد ادى به هذا الى الملاينة والمصانعة والمداهنة في بعض الاحيان . مثال ذلك موقفه من التطاحن الذي وقع بين والي حلب وبين رؤساء عساكر الجزائر بعد وفاته . فالشهابي ارسل التقدم لمرشح رؤساء العساكر اسماعيل باشا وتقبل خلعته الولاية منه وكتب في الوقت نفسه الى متسلم دمشق انه سيطيع من توليه الدولة ولكنه لن يخضع لاسماعيل لانه خرج على الدولة . واستقبل مرشح الدولة ابراهيم باشا والي حلب وتقبل خلعته الولاية منه وارسل معه من يمثله في حصار عكة على راس مثة فارس . ولكنه على الرغم من هذا عرف كيف يحافظ على هيئته وعند اي حد يقف . فانه عندما علم بقدوم والي حلب عن طريق حاصبيا فصيدا نزل من دير القمر الى صيدا على راس ستة الاف مقاتل وقابل الباشا واعتذر عن مواكبته قائلاً انه بعد ما جرى بينه وبين الجزائر أقسم انه لن يواجه وزرا . وانه سيمثل في الحرب القائمة بمئة فارس . ثم عاد الى دير القمر^(٤٠) . ولم يعثر الشهابي في مواقفه هذه شيء من الجبن او التخاذل . فانه عندما كانت الضرورة تقضي بتدخله تدخلًا فعلياً كان يدفع برجاله الى ساحات الوغى فيرجع الكفة وينال ما يطلب كما سنرى عند الكلام عن سانور والمزة .

(٣٨) لبنان في عهد الاسراء الشهابيين ج ٢ ص ٢٠٣

(٣٩) من الاصل : المحفوظات اللبنانية ملف السياسة الخارجية .

(٤٠) لبنان في عهد الاسراء الشهابيين ج ٢ ص ٤١٤-٤١٨ و ٤٢١

وكان نديمه وشاعره المعلم نقولا الترك على صلة وثيقة بمصر . فانه زارها سنة ١٧٩٩ ومكث فيها مدة ثم عاد الى لبنان . وما ان دخلها نابوليون بمساركة حتى عهد الشهابي الى نديمه ان يعود اليها للمراقبة ففعل وجعل مقره في القاهرة اولاً ثم في دمياط . وكان يدون كل ما يتصل به من اخبار الجيوش وحرركاتها وعددها وعُدها ويرسل خلاصة ذلك الى الامير^(١) . وقبل ان يعود « المعلم » الى لبنان ثانية اسر في مصر علاقات طيبة في اوساط « الشوام » واكثرهم تجار وكتاب دواوين فبقي على معرفة في شئون القطر الشقيق وعلى بصيرة في قدر امكانياته الحربية والاقتصادية والسياسية . وكان يميل الى محمد علي الكبير ويقدره حتى قدره^(٢) . ومن هنا في الارجح نشأ ميل الامير الشهابي للفرز واستعداده للجوء اليه والاعتماد عليه . وبعد ان وطّد الفرز حكمه وأظهر بأسه ورجولته وأصلح ما اصلح اصبح التفاهم بين الرجلين محتماً . واهل بعض الفضل في هذا يعود الى فرنسة صديقة الاثنين معاً والى الفاتيكاني الذي رأى من الاثنين في معاملة النصارى في الشرق ما لم يره من غيرهما من قبل .

والغريب المستغرب الا يكروننا قد اتصلا ببعضها قبل السنة ١٨٢٢ فليس بين اوراقها المختلفة اي اثر لاتصال مباشر او غير مباشر قبل هذا التاريخ . وليس في ما نشر من تقارير قناصل الدول ما يدل على ذلك . وقل الامر نفسه عن النصوص التاريخية التي تعود الى ذلك العهد . وفي السنة ١٨٢١ وقعت الواقعة بين درويش باشا والي دمشق وبين عبدالله باشا والي صيدا لاسباب نعود اليها فيما بعد . ووقف الشهابي الكبير الى جانب عبدالله باشا فأيد اخضامه في لبنان درويش باشا . واشتد الحُصام فاضطر الشهابي الكبير ان يلتجئ الى والي مصر محمد علي الكبير وكتب له بذلك . ولدى ورود الجواب بالقبول في صيف السنة ١٨٢٢ احضر الامير مركباً افرنسياً كان راسياً في ميناء بيروت الى الدامود وتزل اليه مع اتباعه وولديه خليل وامين . وبعد خمسة ايام وصل الامير وحاشيته الى دمياط فبولاق واقام فيها . واستقبله في بولاق المعلم حنا مجري باسم كتخدبا بك . وعند الغروب عاد اليه وسار امامه الى قصر الحُزندار في الروضة حيث اجتمع بكتخدبا بك ثلاث ساعات وشرح له ما وقع معه في بر الشام فطمأنه وطيب قلبه . وفي اليوم التالي زار الامير ابراهيم باشا ابن الفرز فآكرمه وجبر خاطره . ثم جاء المعلم حنا وأفهمه ان الفرز امر بقيامه الى بني سويف فذهب اليها واقام في الفشن . وبقي فيها سبعين يوماً . ثم عاد الى بني سويف نفسها فخصه ابراهيم

(١) المعلم نقولا الترك لغوؤاد افرام البستاني : الديوان المشار اليه آنفاً ص ب - ج

(٢) لبنان في عهد الاسراء الشهابيين ج ٢ ص ٣٥٠-٣٨٥

باشا بزيارة دامت ساعتين . وبعد ذلك كتب اليه كتحدا بك ينجزه بقرب مجيء الغزير الى القاهرة ويطلب اليه ان يعود اليها لمقابلته . ففعل وقابل الغزير في قصره في شبرا واختلى به ساعتين . وقص عليه ما جرى له مما ادى به الى الالتجاء اليه . وبما قاله انه كسر درويش باشا وانه لو اراد للملك دمشق بيوم واحد وانه كان بإمكانه ان يقاتل عساكر الوزيرين مصطفى باشا ودرويش باشا معاً وان ينتصر عليها ولكنه ابى ذلك امتثالاً لاوامر الدولة . فسر الغزير به وقال له : هكذا تكون اصحاب المروة . ثم اضاف : اني ما طلبت من الحق طلباً الا واستجاب دعائي وقد طلبت ان اراك فسبحانه تعالى ما حرمني ذلك ثم قال : ان مصلحتي تمت وان شاء الله قريباً تم مصلحتك وأصر عليه ان يراه كل يوم . ثم قبل الامير الاتك وعاد الى مقره في اثر النبي . وفي اليوم التالي زاره الغزير في اثر النبي وتناول الطعام عنده . ويوم الجمعة دخل الامير على الغزير في ديوانه في القلعة وحوله اعيان مصر . فآكرمه الغزير وقال لقاضي القاهرة : هل عرفت هذا الرجل ؟ فطلب العفو والتقى السلام . فقال الغزير : هذا كبير عشائر جبل لبنان وهو يحكم على مئة الف مقاتل . وكان بإمكانه ان يارب الوزيرين اللذين يحاصران عكة واكنه ابى ان يخالف اوامر الدولة . وبقي الامير يتردد على الغزير طوال اقامته في القاهرة كل يوم مرة . وما زال في القاهرة حتى عفا الباب العالي عن عبدالله باشا وابقاه في منصبه كما كان . ولدى وصول العفو استدعى الغزير الامير وقال له : لقد صرت عندي بجمرة ابني ابراهيم واني لم اقم بهذه المراجعات الا لاجلك انت فقط ثم امره ان يكون على ابهة السفر وان ينقل العفو الى عكة بنفسه وان يتعاون وعبدالله باشا لارضاء الباب العالي بدفع المال المتوجب على هذا الاخير ففعل كما سنرى^(٤٣) .

ومنذ ذلك الحين بقي الشهابي الكبير على صلة وثيقة مع الغزير يتفهم سياسته ويسعى ما امكنه لمعاونته . ففي اواخر تشرين الاول من السنة ١٨٢٣ نرى الامير منهمكاً في استخراج الفحم الحجري من قرنايل لبنان وفي ازاله الى ميناء جنونية لتصديره الى مصر سداً لحاجات الغزير^(٤٤) . وفي اواسط اذار من السنة التالية ١٨٢٤ نرى الغزير ينجز عبدالله باشا بانه كان قد وجه سؤالاً الى الامير بشير قبل خروجه من مصر وعودته الى بر الشام يستوضح فيه عدد الجنود الذين يتسكن الامير من جمعهم وارسالهم اذا اقتضى الامر وان الامير اجابه بانه عند اقتضاء الحال يقدم عشرة الاف رجل بقيادة ابنه الاكبر - يقول هذا

(٤٣) لبنان في عهد الامراء الشهابيين ج ٣ ص ٧٢٣-٧٤٦

(٤٤) المحفوظات الملكية المصرية لاسد رستم ج ١ ص ٥٨

ثم يطلب الى الباشا ان يتصل بالامير ويطلب اليه ان يبر بوعوده بمناسبة ظهور قضية الموره. وكتب العزيز ببطل هذا الى الامير نفسه^(٤٥). وفي اواخر السنة نفسها واول ما بعدها ١٨٢٤ - ١٨٢٥ نرى العزيز يعنى بمصلحة الشهابي الكبير في بر الشام فيطلع على تقارير مخبريه ويستمع لاقوال الامير امين ابن الامير بشير ثم يكتب الى عبدالله باشا بوجوب مساعدة الامير الكبير للقضاء على اخصامه في لبنان ولا سيما الشيخ بشير جنبلاط الى ان يقول في اواخر كانون الثاني من السنة ١٨٢٥ بانه أمر بتجيز ستة الاف من الفرسان والمشاة بامرة طوسون يكن بك لمساعدة الامير الشهابي الكبير على خصمه^(٤٦). وفي السادس عشر من آب من السنة نفسها كتب الامير الى العزيز يشكر له عطفه على الامير امين ويقول « وقرر لنا عبدكم ولنا ما صدر به امر سعادتكم ولقد تلقيناها بالاطاعة والامثال. وكلما تصدر به اوامر دولتكم فهذا العبد واقف لما على قدم الانقياد لانني عاهدت نفسي على دوام امثال اوامر عطوفتكم الكريمة. وقيدت ذاتي بالاطاعة والانقياد لما به ارادة عنايتكم الوسيمة^(٤٧). وهكذا فيكون الكبيران في مصر وفي لبنان قد تفاهما تفاهماً سياسياً عسكرياً منذ السنة ١٨٢٣ وهو ما احس به الى حد ما المسيو هودر الفرنسي الذي امّ القاهرة ليعقد تفاهماً بين وزارة بولنيك وبين العزيز للسيطرة على الجزائر. ولكنه رأى ان هذا الحلف لم يربط لبنان بقدر ما ربطته فرنسة وذلك للفارق الديني الذي كان يفرق بين الدرود واميرهم والنصارى من جهة وبين محمد علي من جهة اخرى. هذا على الرغم من ان الامير الدرزي بشيراً كان في نظره لا يزال نصف مسيحي^(٤٨).

(٤٥) المحفوظات نفسها ج ١ ص ٥٩-٦٠

(٤٦) المحفوظات نفسها ج ١ ص ٦٢-٦٦

(٤٧) المحفوظات نفسها ج ١ ص ٦٧

(٤٨) DOUIN, G., *l'Expédition d'Alger*, pp. 216-217

الفصل الثاني

الايالات الشامية

١٨٣٢-١٨٠٤

نظام الحكم كانت الديار الشامية في مستهل القرن التاسع عشر مقسمة الى اربع ايالات: حلب ودمشق وطرابلس وصيدا . وكل ايالة مقسمة الى سناجق والسناجق الى متسليات في غالب الاحيان . وعلى راس كل ايالة وال يعينه السلطان لسنة واحدة بدؤها اول اذار شرقي وقت صدور « التوجيهات » بلفة ذلك العصر . وكان يحق للوالي ان يسمي لتجديد ولايته سنة فسنة . وقضت القوانين المرعية الاجراء ان يرأس كل سنجق بيك من البكوات وان ينوب عن الوالي في كل مدينة متسلم . اما الريف فانه كان مقسماً الى زعامات وتيارات وموزعاً على سباهين وجبهجين وغيرهم مدة حياتهم . وكان على هؤلاء ان يلبوا الدعوة للحرب بشروط معينة وعلى نفقتهم الخاصة وان يقوموا باعباء الحكم في مقاطعاتهم^(٤١) .

وكان يحيط بالوالي في عاصمة الايالة رؤساء الجند وهم قواد الفرق التي كانت تشكل حامية الايالة . واكثر هؤلاء من الانكشارية . وكانوا في ذلك العهد المتأخر من تاريخهم متزوجين يقيمون مع عيالهم في احياء . معينة من البلدة كحي الفرافرة في حلب وسوق ساروجه في دمشق . وكان لكل فرقة ضباط يسمون الوجاقلية وكبيرهم الاغا اي رئيس الفرقة .

VON HAMMER, *Geschichte...*, p'57, 476. (٤٩)

VON HAMMER, *Staatsverfassung...*, p 337.

D'OHSSON, *Tableau Général...*, VII, 372.

ومن اجتماعهم يتألف ديوان الوالي . ولهذا الديوان سلطة واسعة اذ ليس بمقدور الوالي ان يجرم امراً هاماً الا بموافقة الاعضاء . رؤساء الصاكر . واذا وقع خلاف بينه وبينهم رُفِع للاستانة للفصل فيه . وكان لهؤلاء ان يطلبوا عزل الوالي اذا شاؤوا .

وكان لدى الوالي في غالب الاحيان ايضاً عدد من الجنود غير النظاميين «باش بوزق» يتناسب ومقدرته على الانفاق . منهم الكردي القريب والاناضولي والارناؤوطي البسد والمغربي وابن البلد . فينتظمون فرقاً بتفاهم شخصي بين كل فرد منهم وبين قائد فرقته . وهذا القائد يتولى جميع امورهم على نفقة الوالي . وكان الوالي يوزعهم داخل ايالته حيث تقضي الحاجة . فسلیمان باشا مثلاً ابقى قسماً كبيراً منهم في مرجييون على مقربة من جبل عامل نظراً لقلبان اهله آنذد واخلالهم بالامن^(٥٠) .

وكان يحدق بشخص الباشا عدد من المماليك منهم التوتونجي باشى وهو رئيس الخدم الذين يقدمون التبغ والقوجى باشى والتفتان اغاسى والابريقدار والشعدان اغاسى والميجو باشى وهو رئيس من يعنى بالضيوف والمهردار والدربندار والاختار اغاسى وهو صاحب المقاتيح والقواس باشى وباش جاويش ابيج اوغلان وهو رئيس الغلمان . والحرم اغاسى والصفرجى باشى . اضف الى هؤلاء الاغاوات اصحاب الكاركات السلحدار والجوقدار والبيوقدار . ثم اصحاب الوظائف واهمهم الكتخدا والحزينة دار والصراف وعدد كبير من الكتاب^(٥١) .

ويقول المعلم ابراهيم العوره احد هؤلاء الكتاب في عهد سليمان باشا والي ايالة صيدا وايالة طرابلس انه في السنة ١٨١١ رتب الوالي امر المسلمين والكتاب والصارفة في هاتين الايالتين فجعل مصطفى اغا بربر متسلاً على طرابلس واللاذقية ومحمد اغا خزينة دار زاده وكيلاً عنه في اللاذقية وحسين اغا احد مماليك الجزائر امين جمرک اللاذقية وعلي بك الاسعد حاكماً على عكار والامير بشير الشهابي حاكماً على لبنان واوزون علي اغا متسلاً على بيروت وامين جمرکها وعلي اغا الصوري متسلاً على صيدا وعلي اغا اباطه متسلاً على جباع وموسى اغا شرکس متسلاً على مقاطعة الشقيف وابراهيم اغا الكردي احد رؤساء الصاكر حاكماً على مرجييون وتبنين وهونين وساحل قانا وسليمان اغا اباطه متسلاً على صور واحمد عبد العال وكيلاً في ساحل عكة ونهر المفشوخ والحاج موسى ابو ريا متسلاً على الشاغور والجبل وترشيحه ومحمد اغا احد مماليك الجزائر متسلاً على شفا عمر وتوابها وسلم اغا ابو سيف احد

(٥٠) تاريخ سليمان باشا لبراهيم العوره ص ١٥٧

(٥١) تاريخ سليمان باشا للسؤلف نفسه ص ١٥٨-١٦٤

بمالك الجزائر متسلماً على الناصرة وعمر الطوسي وكيلاً عنه على قراها . اما مزارع الناصرة فانها كانت بالترام الحواجه انطون كنفكو قنصل النمسه في عكه . وكان ساحل حيفا وعتليت بالترام الشيخ مسعود الماضي . وجعل الوالي محمد اغا ابو نبوت حاكماً على غزة وياقة والرملة واللد فأقام في يافة وعين وكلاء . عنه في سائر أنحاء منطقتة . وكان له ان يزولهم ويوليهم دون استشارة الوالي . وعين سليمان باشا كاتباً في اللاذقية عبد الله الياس وباشكاتب في طرابلس المعلم نعمه الله غريب وكاتباً عربياً في طرابلس المعلم وهبه صدقه وكاتباً لدى علي بك الاسعد المعلم نصرالله نوفل وكاتباً في بيروت المعلم ايوب نصر الله وصرافاً فيها المعلم ميخائيل ساروفيم وكاتباً في صيدا نخله مارون وصرافاً فيها جبور القرداحي وهام جرا^(٥٢) .

وجرى في الارجح مثل هذا عيناً في اياتي حاب ودمشق . فسجلات المحاكم الشرعية في هاتين الايالتين تحفظ الكثير من البيورادات الصادرة عن والي الايالة التي تبين هذا الامر بيد انه ليس لدينا من اثار كتابها او موظفيها ما خلفه لنا المعلم ابراهيم العوره عن اياتي صيدا وطرابلس وبالتالي فانه ليس بإمكاننا ان نعين الاسماء والوظائف في هاتين الايالتين الداخليتين كما فعلنا بطرابلس وصيدا^(٥٣) .

وقضت قوانين الدولة آنذ ان يقترح قاضي عسكر الاناضول تعيين من تتوفر فيهم الشروط اللازمة لتولي القضاء في الايالات الشامية الاربع فتصدر بذلك فرمانات رسمية عن عاصمة السلطنة ويجلس للقضاء كل سنة وفي كل من حلب ودمشق وطرابلس والقدس «مولى خلافة» من علماء الاتراك . ويقوم هو بدوره بتعيين من ينوب عنه في سائر مدن الايالة التي وُلي القضاء فيها . وقل الامر نفسه عن الافناء . فانه كان يتولى الافناء في كل من حلب ودمشق ممتون اربعة من المذاهب الاربعة يجهلون عما كان يلقي اليهم من المسائل المشكوك في احكامها . اما في طرابلس وعكة فانه لم يكن فيها سوى مفتٍ واحد بموجب المذهب الشافعي في غالب الاحيان . ولم يكن للتقاضي رسوم مطلومة ولا مرتب محدود . بل كان يجب على كل قاض ان يتقاضى عن كل دعوى ما يقدره هو من الاجر . واذا كان متورعاً فانه لا يطلب اجراً معيناً بل يكتفي بما يعرضه ارباب القضايا . وكان يحق لغير المسلمين ان يترافروا في القضايا الشخصية التي تقع فيما بينهم امام رؤساء دينهم . واذا اختلفوا في ذلك عادوا الى قاضي الشرع .

(٥٢) المؤلف نفسه ص ١٥٦-١٥٨ و ١٦٥-١٦٦

(٥٣) نجد في كتابنا الاصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا وفي الجزء الاول منه ما

يكفي لاثبات ما ذهبنا اليه اعلاه، ولكن للسنة ١٨٣١-١٨٣٢

واقع الحال

وانفس آل عثمان بالمذات والتهوا عن الحكم والادارة ونكبوا بفقدان الرجولة فسقطت هيئتهم من عيون الانكشارية وبدأ هؤلاء يولون من ابناء عثمان من يشاؤون . ثم تلاهى هؤلاء ايضا عن وظائفهم ففقدوا صفاتهم الحربية القديمة واصبح مهمم الوحيد ابتزاز الاموال فعمت الرشوة مصالح الحكومة باسرها واصبحت الوظائف تباع وتشرى . فاضطر الولاة ان يبتاعوا وظائفهم . وكان الواحد منهم لا يوفى الى تجديد مدة ولايته دون ان يرسل الى الآستانة ما يرضي به رؤساءه فيضطر والحالة هذه ان ينظر الى وظيفته كوسيلة لابتزاز المال . وكانت مناصب القضاء ايضا تباع وتشرى وتعرض في اسواق المساومة فتدس الى من يدفع الثمن الاعلى . وكان المرلى خلافة لا يعرف العربية فيتكل في نقل اقوال الحُصوم على مترجم اصبح هو صاحب القول الفصل . ولم يوفى القضاء في بر الشام في ذلك العهد الى قضاة علماء . مما اضطر هؤلاء ان يعودوا الى فتاوي العلماء للفصل في القضايا الماثلة . وكانت على هذه الفتاوى تقوم مستندات الدعاوى ، الشيء الذي اكثر الافساد في العصر العثماني وعدد انواعه .

اما عن الجند فحدث ولا حرج . فالانكشاريون والسباهيون وغيرهم كانوا قد استوطنوا دمشق وحلب وغيرها من المدن الشامية واستقروا بها فصار لهم صبغة محلية وكثرت مطامعهم ومشاكلهم ولبأوا في غالب الاحيان الى القوة للوصول الى ما كانت تصبو اليه نفوسهم . قال معاصر دمشقي : « انه في كل هذه المدة لم يكن راحة لابناء السبيل في دمشق لان تعديت الجند كانت كثيرة وذلك لعدم خضوعها للنظام . واذ كان اصحابها اولو السطوة لا يسألون عما يفعلون دخل في سلكها كثير من الاهالي . ثم انقسمت المدينة الى حزبين حزب انكشاري وحزب قبيولي . وكانت العداوة بينها عظيمة وشديدة . حتى انه لم يضر يوم الا وتحدث فيه مشاجرة . وفي بعض الاحيان كانت تقاتل الحوانيت ويجري الدم بين الثائرين . واحياناً كانوا يخربون احياء برمتها . وكانت التعديت على اهل العرض والذمة كثيرة جداً . وكالت المرأة الحسناء لا تجسر ان تخرج من بيتها بدون ان يحرسها حارس قوي وان لم يكن حارس فتلتم ان تلبس ملابس رثة وتحمي ظهرها ليظنها من يراها حزينوناً . وكان كل صاحب مهنة يصحب اسلحته معه الى محل عمله ليكون على استعداد حتى اذا جد شر ينضم الى حزبه . وكان اهل الذمة بجالة يرثى لها . وكثيراً ما وقعت التعديت عليهم . وكانوا يتكيسون باصحاب السطوة من المسلمين لصيانة انفسهم . اما الحكومة فكانت بيد رجل يجلس بباب السرايا يسمونه تفكجي باشي فكان يقضي ويمضي حسب امياله فمن شاء ظلم

ومن شاء رحم غير مختش. لوم لانم . وقد قلت بضاعة المعارف لرواج بضاعة السيوف
والصبي^(٥٤) .

وقبل الفتح المصري تولى الحكم في دمشق والو جديد . وقد كان فيما مضى صدراً
اعظم اغني محمد سليم باشا . وكان قد اشترك في القضاء . على الانكشارية في الآستانة وفي
تنظيم عسكر جديد فلم يرق تعيينه للاغاوات . وما ان فرض ضريبة طفيفة واجبر الاهالي
على دفعها حتى نادى الجميع بالمعيان وكان قد اتى ببعض المساكر الجديدة فظان الانكشاريون
وغيرهم انه سيقضي عليهم كما قضى على زملائهم في الآستانة . فتألبوا عليه واخذوا يضربون
الطبول ويطوفون في الحما. المدينة . فدخل سليم القلعة مع فرقة من جنوده ولبث الباقون
خارجها لقله الملق فيها . واشتملت الحرب بين الفريقين ففاز الاهالي على الوالي خارج القلعة
وقتلوا اكثر رجاله والتجأ الباقون مع زعيم لهم ، قاضي قران ، الى احد الجوامع القرية من
القلعة وحاصروا به . وامر الوالي بضرب البلد بالمدافع من القلعة . ولكن الانكشاريين
والاهالي صدوا في وجهه واخربوا جانباً من سور القلعة . ولما نفذ ما عند الوالي من المؤونة
اضطر الى اكل الدواب فنفتت ولم ير الوالي نافذة للفرج . وكان زميله في صيدا ينفذي
الانكشاريين بدلاً من المحافظة على هية الحكم . ولم يكثر زميله الاخر في حلب بما
جرى له فاضطر الى التسليم وطلب التأمين فأمنوه فخرج من القلعة الى بيت بالقرب منها .
ثم هاج عليه الاهالي بتحريض من الانكشاريين مدعين انه عامل على مكيدة لهم . فدافع
عن نفسه اشد دفاع واخيراً نهب الانكشاريون ستف البيت الذي كان فيه وألقوا عليه
النفات حرقاً واخذوا جسده وعرضوها للناس فرجة^(٥٥) . ولله من المفيد بهذه المناسبة ان
نذكر انه لم يسبق للدمشقيين ان دفعوا للدولة سوى مال الجمارك على الداخل الى دمشق من
خارج اياتها . وكان للدولة على النصارى واليهود في دمشق مال الجزية ومال غنب الكنائس .
اما المسلمون فانهم لم يدفعوا شيئاً البتة من الضرائب .

وادت تمديات الانكشارية وغيرهم من الجند في حلب الى انقسامها الى حزبين ايضاً
حزب الانكشاريين وحزب الاسياد . وجرى فيها مثل ما جرى في دمشق بما استلفت نظر

(٥٤) الروضة الفناء في دمشق الفيحاء لثمان القساطلي ص ٨٦-٨٧

(٥٥) الروضة الفناء ايضاً ص ٨٧ - ٨٨ . مذكرات نارينغية للخوري قسطنطين الباشا ص ٧٥

و ٢٢ - ٣٥ و ٣٨ . الجواب على اقتراح الاحباب - مخطوط للدكتور مخائيل مشاقه

ص ٢٥٢ - ٢٥٣ نسخة جامعة بيروت الاميركية . كتابنا مصطلح التاريخ ص ١٤٦-١٥٥ .

كتابنا المحفوظات الملكية المصرية ج ٢ ص ١٥ رقم ١١٣٥

الرحالة السويسري داود بوركهاردت في اوائل القرن الماضي وجده يفرد له باباً خاصاً في رحلته الى الاراضي المقدسة .

هذا ولم يكن الملا اسماعيل صاحب الحول والطول في حماه سوى كبير الدلاية وكان قد « قوي في المال وصار عنده عدة شراقات » بلفظ الامير حيدر احمد الشهابي المعاصر .

ولنا في سيرة مصطفى اغا بربر دليل اخر على ما ذهبنا اليه . ولد مصطفى ابن يوسف الترق في طرابلس سنة ١٧٦٧ فتلقب بربراً وكان له اخ يقال له محمد عزرائيل ! وتوفي ابوهما وهما قاصران فاخذتها والدتها وسكنت بها قرية برسا من الكوره السفلى بالقرب من طرابلس . ولما شب مصطفى خدم الامير علي الايوبي في الكوره ثم الشيخ رعد صاحب الضنيه وتردد على المشايخ بني زخريا في القويطع . ثم خدم الامير يوسف الشهابي حتى السنة ١٧٨٨ . وبعد هذا عاد الى طرابلس وانخرط في وجات الانكشارية تحت رئاسة زعيمهم مصطفى اغا الدلبه . وكان بين كبيرهم هذا وبين ابراهيم اغا سلطان زعيم الانكشارية السابق نفور لانه اتى بغنة من الارناؤوط كانت تضر بالبلد . فهاج الاهلون وثاروا وكان مصطفى اغا قد احتشد بعضاً من الشبان فقاتل بهم . ثم سار بزمرته الى عكة واقام بمجدة الجزائر فاقامه في بيروت . ولما علم ان عبد الله باشا العظم تولى طرابلس واكثر فيها الجور والاعتساف استأذن وجاء اليها فطرد عبد الله باشا منها وعقد اليهود مع بعض الشبان وبعث باحدهم محمد اغا القندجعي لينام في القلعة عند المحافظين فذهب وربط حبلاً بمدفع ودلاه من شراقة القلعة . وكان بربر وجماعته قد كنوا الى جوانبها فاتوا الجبل ولما صاروا كلهم في اعلى القلعة هجموا على المحافظين وتلاوهم واخذوا يطلقون المدافع علامة على قتلهم . وتولى بربر القلعة . فهرب ابراهيم اغا سلطان واستقل مصطفى اغا الدلبه وما زال الى ان توفي فصار بربر هو الحاكم بامر . وفي غضون ذلك انعمت الدولة بولاية طرابلس على احمد باشا الجزائر والي صيدا فارسل الجزائر امراً بتوجيه منصب قائمقامية طرابلس لهده بربر اغا . وسنة ١٨٠٨ احيلت ولاية طرابلس الى عهدة كنج يوسف باشا فصدر امره الى بربر ان يسلم القلعة لسكر الدولة ويستمر حاكماً في المدينة فأبى بربر واعتاض الباشا وجاء بالجيش فحل في ظاهر البلدة . ونادى بربر باهل البلد بانسه سيحصر في القلعة وان الباشا ينتقم . فهربوا الى الجبل ودخل الباشا البلدة ونهبها وهدم بعض الدور ثم حصر القلعة احد عشر شهراً حتى نفذ الزاد وانهدم بعض سور القلعة ففر بربر منها وسار الى صيدا فاستقبله واليها بالاكرام . ثم ورد الفرمان العالي بقتل كنج يوسف لانه اضر بطرابلس وتقررت الولاية

على سليمان باشا والي صيدا فهرب كنج الى مصر واتهم سليمان على بربر بقميامة طرابلس فعاد اليها^(٥٦).

ومع ان سليمان باشا الكرجي والي صيدا وخلف الجزائر فيها كان «عادلاً حليماً رفقاً» فانه لم يفلح في اصلاح الحال لتكاثر الفساد وقلة الصالحين بين موظفيه . قال مؤرخه واحد الكتاب لديه المعلم ابراهيم عوره : كان عند الوالي عبد اسمه سعيد وقد اشتراه الباشا صغيراً ولما كبر البسه قاورقاً وجعله يجوسي خادم الدار وكان يأكل من المطبخ ويأخذ بدلتين في السنة نظير باقي المماليك . ولما اعتقه سيده وصار اغا واستغنى بالماش ازداد شقاوة وارتكب جميع انواع الكبائر من سكر وزنى وفسق . وكان يأخذ ما يريد من الدكاكين واذا اعترضه احد ضربه اما بيده او بالعا او بالسيف . واخيراً تقدم عدد من اصحاب الدكاكين بالشكوى ولما مثلوا امام الباشا غضب عليهم من اجل سعيد وقال : «تحيوا يا اردال . انا مالي سوى هذا العبد اما تستحوا تشكروا عليه اء . وكان كتحدا بك علي باشا اعظم من الباشا يخيف الخلق ويدهمهم . والثالث بعد الوزير كان المعلم حايم اليهودي الذي قبض على زمام الامور وفعل كيفما شا . ومن يقول ان حكم اليهودي امر هين . والرابع بعد الوزير كان عبدالله باشا ابن الكتحدا والخامس حسن اغا الخزينه دار صهر عبدالله باشا والسادس عبدالله اغا حرم اغاسى والسابع السكبان باشي ضابط البلدة والثامن الاوضباشي والتاسع حسن اغا قرنباس اوغلو ايجوقدار فهذا جل نفسه وزيراً تانياً والذي لا يرشيه او لا يهابه يقع في بلاء عظيم . والعاشر الطوبجي باشي وهذا ايضاً جعل من نفسه وزيراً اخر بل اعظم من ذلك اذ انه كان يقول انه بامكانه ان يعزل الوزير والحادي عشر ضباط الابراج والثاني عشر سليم ابو سيف احد مماليك الجزائر وكان بالصفوان والجبر والكعبيا . لا نظير له يفضل كما يشاء . دون معارضة . والثالث عشر زكور اغا المحتسب وناظر الاملاك فهذا كان عكا بنهماها والرابع عشر ايوب سلامة الكمر كجي وهذا كان لا مثيل له بالسفاهة والتعدي والرداوة والخامس عشر كان عبد الحليم شيخ الخزينه واولاده وهو ناظر مصالح الفلاحين وكان لا يشبه احداً بساير تصرفاته . والسادس عشر مسعود الماضي وكان ذا نفوذ وكرامة لدى علي باشا الكتحدا وقد اشتهر بمكروه ونفاقه . والسابع عشر القاضي الشيخ محمد ابو الهدى وكانت احواله غريبة ولا يجسر احد ان يتكلم شيئاً عنه فهو القاضي

(٥٦) عن رواية الياس صدقه كما نقلها جرجي بني في كتابه تاريخ سورية ص ٤١٢-٤١٦

واستاذ علي باشا وابنه جده الله باشا^(٥٧).

ومما رواه هذا الشاهد عن الموظفين خارج عكة ان متسلم بيروت وامين جمر كما اوزون علي اغا كان يطمع بالوزارة وينفق انفاق الوزراء ثم يطلب المال اللازم لذلك من سكان البلد وان ابراهيم اغا الكردي الذي كان يقيم في مرجييون بمساكره كان يفعل ما يشاء ويعتبر منطقة نفوذه الاداري ملكاً له ولاولاده وسائر الاكراد . ومما يقوله ان مصطفى اغا بربر كان شرساً للغاية وانه تناسى الوالي والسلطان . وهو يقول عن الباقيين انهم تساوا في الشراسة والتمتر وفي عدم التفريق بين الظلم والمدل^(٥٨).

(٥٧) تاريخ سليمان باشا لبراهيم عوده ص ٤٧٦-٤٧٩

(٥٨) المؤلف نفسه ص ٤٧٩-٤٨٠

الفصل الثالث

التدخل اللبناني

١٨٠٤-١٨٣٢

وهكذا فان الولايات الشامية في اوائل القرن التاسع عشر كانت رابضةً تحت مظالم ولايتها ومطامع قضاتها ومفاسد جنودها .

المطر السعدي وكانت الجزيرة العربية قد تمخضت مرة اخرى فأنت بمحمد ابن عبد الوهاب وسعود ابن عبد العزيز . ووُلد محمد هذا على شيء من الشذوذ فانه اظهر القرآن حفظاً بلا كتاب قبل العشرة وبلغ الحلم قبل الاثنتي عشرة . وقرأ على والده ولكنه لم يكتف فرحل طالباً وزار الحجاز والاحساء والبصرة واقام فيها ودرس على اشياخها . وكان لطيفاً محسناً شفوفاً حليماً ولكنه لم يكن يهاود او يلين في يقينه . فانه مذ رأى وجوب الرجوع الى الشرع والقرآن قبل كل شيء . نبذ الشفاعة وحرّمها ثم ازالها . ورأى في الآية « قُلْ لَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَهْ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » رأى في هذا ما كفاه فعزم زيارة الاولياء . للشفع ومنها قبر صاحب الرسالة . ومن هنا نشأ الخلاف بينه وبين اهل السنة الذين يرون في صاحب الرسالة الشفيح الاكبر . وفيما سوى هذا فان المصلح النجدي هو سني حنبلي . قال في احدي رسائله : « الحق والصواب ما جاءت به السنة والكتاب وما قاله وعمل به الاصحاب وما اختاره الائمة الاربعة المقلدة في الاحكام المتبعة فقد انعقد على صحة ما قالوه بالاجماع . » وفي الثانية والاربعين من عمره - ١٢٤٥ - بايع محمداً ابن سعود امير الدرعية على ان يكون اماماً يتبعه المسلمون . وتعاهد الاثنان على كلمة التوحيد ونشرها بين العرب . فحاربوا العلماء بالعلم والجهلة بالسيف .

وكانت نجد والاحساء. والعارض وما جاورها مقطعة الاوصال ليس فيها الا السيف فاصلاً واصلاً.

وكان القتل على الاجمال الطريق الاسهل الى الاستيلاء. والسيادة. فقام محمد ابن سعود يدعو الى التوحيد على طريقته وبطريقته زملائه فدوخ من دوخ من جيرانه. ثم قام ابنه عبد العزيز فحمل رايات التوحيد الى اماكن بعيدة في ذلك العصر في البوادي والحضر. ولم يلقى الدولة شي. من هذا حتى دخل سعود ابن عبدالعزيز كربلاء. نقطة الدائرة في شفاعة الاولياء. وذلك في السنة ١٨٠٠ وهدم القبة فوق قبر الحسين ونهب البلد. وفي السنة ١٨٠٣ دخل ايضاً مكة ظافراً وشرع في هدم القباب فوق قبورها. ثم اتجه نحو المدينة فدخلها عنوة في السنة ١٨٠٥ ووجه كتاباً الى السلطان سليم الثالث يقول فيه ما معناه : اما بعد فقد دخلت مكة وأمنت اهلها وهدمت ما هنالك من اشباه الوثنية وألغيت الضرائب الا ما كان منها حقاً وثبت القاضي الذي وليته انت فمليك ان تمتع والي دمشق ووالي مصر من الهبي. بالحمل والطبول والزومر الى هذا البلد المقدس. فان ذلك ليس من الدين^(٥١).

واهتمت الدولة للامر وطلبت الى والي بغداد والبصرة ان يجردا حملة على هؤلاء «الموحدين» ففعلوا ولكنهما لم يُفاجئا. وألحت كذلك على الجزائر والي صيدا وطرابلس ودمشق واورال الحليج بالامر نفسه. ولكنه كان قد بلغ اقصى الكبر وعجز وضعف. ثم عينت محمد باشا ابا مرق قائداً لجملة على الحجاز فدخل دمشق وانتقل منها الى يافه واقام فيها فخالف اوامر الدولة ولم يكثر لها. وفي السنة ١٨٠٥ ارسلت الدولة الى دمشق خمسة وزراء لتعيين المساكين ومواكبة الحجاج وحماتهم. ولكن احدهم كان قد ادين على شرب الخمر فام تغارته لحظة من الزمن. وكان يجاس لماقرتها ويضع سلاحه امامه فاذا غضب على امرىء قتله بيده. فاطلق الشوام عليه لقب «سكران باشا». وصار الحجاج وسار الباشوات معهم وانتهموا الى قرب المدينة ثم عادوا من حيث اتوا بعد ان مات منهم عدد عظيم وبين هؤلاء سكران باشا^(٦٠)

وكانت قد اتجهت انظار الموحدين الى الشمال فوصلوا في غزواتهم الى الجوف والبتراء واجتازوها الى الكرك وحووران. ووصل منهم في السنة ١٨٠٦ الى اطراف حوران ثلاث مئة «رديف» فخرج اليهم الكنج يوسف بمسكر من دمشق وحاصروهم في قرية من قرى

(٥٩) تاريخ نجد لابن الرحماني ص ٢٥-٥٨

(٦٠) لبنان في عهد الامراء الشهابيين ج ٢ ص ٤٣٥-٤٣٦

حوران وبعد ان فرغ بارودهم تسلمهم الكنج وذبح منهم نصفهم وعاد الى دمشق بمجسدين هجائاً^(٦١). وفي شهر محرم من السنة ١٢٢٢ (اذار سنة ١٨٠٧) عاد امير الحج عبدالله باشا والي دمشق والحجاج معه دون ان يؤدوا فريضة الحج . « وكان ذلك من العجائب لانه لم يكون جرى قط ان الحاج يرجع من دون الوصول »^(٦٢). فاغتاظ الباب العالي لذلك وعزل عبدالله باشا وولى الكنج يوسف محله .

وكان هذا شامي الاصل نشأ في حماه وترعرع فيها ودخل في خدمة الملا اسماعيل كبير الدالاتية فيها فترقى عنده حتى أصبح دالي باش^(٦٣) ثم خدم عبدالله باشا العظيم المشار اليه آنفاً واحمد باشا الجزائر وابراهيم باشا قطرغاغي . وعاد الى خدمة عبدالله باشا بعد توليه ايالة دمشق فعينه متسلماً عليها في اثناء قيامه بهمة الحج^(٦٤).

وكان الباب العالي قد أفهم الرالي الجديد اي الكنج يوسف ان اقدس واجباته تأمين الحج وكبح جماح الوهابيين فهبّ مذ تسلم ازمة الحكم في الايالة بعد النفوس للجهاد ويطبق الشرع الشريف فنهى عن المنكر ومنع المسكر وأغلق الملاهي وأبعد النساء الحاطيات وحرّم الموسيقى وصان ألسنة العباد من المسافهة والمشائمة . نهى الوزير الجديد عن هذا كله وأتزل اشد العقوبات بمن خالف اوامره . ثم منع التدخين خارج البيوت وحرّم اكل الحلويات وأكره الذكور من شبان وكهول وشيوخ على الالتجاء . ونقذ بعض النصوص الشرعية القديمة بحج النصارى واليهود وألحّ على بعضهم بوجوب التدنن بالاسلام . ثم التفت الى الادارة فقبض على البعض من وجوه الانكشارية وأذاقهم عذاباً أليماً وعاسر الدنادشة في تل كلخ وضواحيها ولم يساعهم حتى دفعوا مئة كيس من النقود ثم كتب الى مصطفى اغا بربر بوجوب التخلي عن القلعة كما اشرفنا وتسلم الاحكام في طرابلس خارجها فأبى وعندئذ قام الوزير بعساكره الى حماه لتأديب النصيرية ولا تزال العقاب بصاحب طرابلس . ولدى وصوله الى منطقة النصيريين فرّ النصيريون من القرى والضيع والتجأوا الى القلع الى حصن مصيف والقدموس وغيرها . فتقدمت اليهم العساكر ونهبت اموالهم وحرقت زرعهم

(٦١) المؤلف نفسه ج ٢ ص ٥٠١

(٦٢) المؤلف نفسه ج ٢ ص ٥١٢

(٦٣) من التركية « دلي » ومناه مجنون . والدلي باشي كان قائد الفرسان غير النظاميين .

(٦٤) لبنان في عهد الامراء الشهابيين ج ٢ ص ٥٢٠-٥٢١

وسبت نساءهم واولادهم وما فتنت حتى انقادوا للطاعة . وقام الوزير بعد ذلك الى طرابلس فدخلها وحاصر قلعتها حصاراً طويلاً^(٦٥) .

اصول دمشق ولو ان والي دمشق توقف عند هذا الحد ولم يتحد لبنان لكان ذلك افضل له ولذويه . ولكنه تطلع الى البقاع وضم السوء للبنان ولما له الكبير فأقال من الحكم في بعلبك الامير جهجاه الحرفوش صديق الشهابي الكبير وفوض الامور الى اخيه الامير سلطان الحرفوش ثم أمر برفع يد الدرروز عن عدد من قرى البقاع مدعياً حرية التصرف بها . وطلب الى وكيله في طرابلس علي بك الاسد ان يجمع من ايلة طرابلس سبعة آلاف غرارة من الخطة وان يطلب بعضها من الشهابي الكبير بصفته امير بلاد جبيل والبترون . فضاقت صدر الامير الكبير وأجاب الاسد في طرابلس انه « لا يمكنه ان يجري على بلاده عوايد مستجدة » . فغضب الوالي وأمر وكيله ألا « يصرف » الامير كالعادة في حكم بلاد جبيل وألا يوجه له الخلع . وعندئذ بات الامير ينتظر الفرص لضرب خصه ضربة قاضية . واتصل بسليمان باشا والي صيدا واطلعه على واقع الحال فشدد غزمه ونصح اليه بالاستعداد للحرب .

وبعد مضي فترة من الزمن لم تتجاوز الشهرين في الاربع ظهرت طلائع الوهابيين في افق حوران . فاضطر الكنج ان يستعد لمكافحتهم وطاب الى زميله والي صيدا ان يوافيه بالرجال فأوعز هذا الى الامير اللبناني ان يجمع ما يمكنه من الرجال وان يلاقه الى طهية . وكان ذلك في تموز من السنة ١٨١٠ . فادرك الامير ان الفرصة سنحت وجيش خمسة عشر الف مقاتل وقام بهم من لبنان الى طهية بطريق مرجعيون . وما ان أطل على عسكر الباشا حتى هبت العساكر لاستقباله بالموسيقى واطلاق النار وساروا امامه حتى وصلوا به الى خيمة الباشا « فالتقاء هذا بالاكرام وحياء بالسلام وقبله بين عينيه واثني عليه » .

وكان الكنج قد قام بمساعره الى حوران لخدمة شمدين آغا متسلم اربد وعجلون الذي كان قد حُصر في قلعة المزييب . وعندما وصل الباشا بمساعره الوافرة واطلق مدافعه ارهاباً خاف الوهابيون لقلته عددهم وتراجعوا الى حدود البادية . وما ان علم سليمان باشا والامير الشهابي بواقع الحال حتى تورا القيام الى دمشق بمساعرها واحتلالها وخلع الكنج يوسف من منصبه بالقوة . ويقال ان الباب العالي كان قد ضجر من تسويات الكنج يوسف

ووعوده الفارغة فيما يتعلق بالوهابين فأصدر فرماناً عين بوجه سليمان باشا والي صيدا والياً على دمشق وطرابلس ايضاً وان سليمان هذا اطلع الامير اللبناني على هذا الفرمان في طبرية طالباً معونته . ومهما يكن من امر هذا الفرمان فان الباشا والامير قاما بعساكرهما الى دمشق بطريق التنيطرة - داريا . وكان قد بلغ خبرهما الكنج يوسف فهول عائداً الى دمشق . ولدى وصول الباشا والامير الى قطنا علما بعودة الكنج الى دمشق فارسلا اعلاماً الى اعيان دمشق يخبرانهم بالفرمان السلطاني الذي قضى بغزل الكنج يوسف باشا . فخرج من دمشق عدد من اعيانها وقضتها ليطلعوا على الاوامر السلطانية وينقلوا معناها الى واليهم . وادى وصولهم الى قطنا اطلمهم الامير على هذه الاوامر واثار عليهم بالطاعة والتسليم مؤكداً انه سينفذها مجروفاً ولو ادى الامر الى تخريب دمشق . فلما سمعوا ذلك وشاهدوا قدوم الرجال من لبنان يومياً وبشكل متواصل طلبوا مهلة ثلاثة ايام . وعادوا الى دمشق . ولدى انتهاء المهلة دون وصول اي خبر من دمشق قام الباشا والامير بعساكرهما الى الجديدة وداريا فاشتبكوا مع طلائع الجيش الدمشقي ثلاث ساعات ثم خرج يوسف باشا نفسه با لديه من عساكر لصدما ففشل في ذلك فشلاً كبيراً وولى مدبراً وعاد الى دمشق وجمع ماله واثقاله وعزم ان يعيد الكرة في الليل فان ظفر بلغ المرام واذا خسر «سار في البر والاكام» . فبلغ ذلك مسامع الامير اللبناني وبات متربصاً مترقباً . وعندما علم عساكر الكنج با عزم عليه مولاهم وكان لهم عنده مالٌ متأخرٌ نهبوا امواله واحماله ففر هارباً بنفر قليل متجهاً نحو اللاذقية فصر . ودخل سليمان باشا والامير اللبناني دمشق منتصرين . ودبر الامير الامور فأعاد مصطفى بربر الى منصبه في طرابلس والملا اسماعيل الى حكمه في حماه والامير جهجاه الحرفوش الى امارته في بعلبك وعاد هو الى مقره في بتدين مغزراً منتصراً^(٦٦) فانشد شاعر قصره رثية طويلة هذا بعضها :

عرا الكون خطب هوله لا يقدرُ اثارته اوغاد من البدو فجرُ
فسارع والي امرها الكنج يوسف الى صدم لما اتاه المخبرُ
ونادى باقطار البلاد الوحي الوحي الى مشهد فيه الفتى ليس يخسرُ
فلي النداء بحر النداء قاهر العدا شهاب الهدى ذاك السيد المظفرُ

(٦٦) لبنان في عهد الاسراء الشهابيين ج ٣ ص ٥٤٩-٥٦٤

المحفوظات الملكية المصرية لاسد رسم ج ١ ص ١-٨

بشير الملا بالنصر والفرز والعللا امير به اعتر الولى والتامر
امير له في كل نفع وغارة فعال واهوال الى الحشر تذكر
له في الوغى للفتك باع مشرع وساق الى خوض المنايا مشر
صبور على الاهوال ان طال جورها حزم سديد الراي رهط مدبر^(٦٧)

الزروع الى بنانه وتأثرت بعض الاوساط الاسلامية في الشام وما تاخم البادية فبا يظهر
باليقظة الدينية التي اثارها محمد ابن عبد الوهاب فاضطر الكنج يوسف

باشا ان يظهر بمظهر التدين والرجوع الى السنة فقام ينفذ بعض الاجتهادات الشرعية التي لا
تمت الى السنة بصلة وتطرف في تفسير هذا البعض فأوصى اهل الذمة بوجوب النهوض للمسلمين
اذا مروا امامهم او دخلوا عليهم . ومنهم من التري بزي المسلمين وخصم بالالوان الاسود
والازرق والحجري والاحمر وحرّم عليهم حمل السيوف والاسلحة وأمرهم بجزّ الناصية وشد
الزئار وبوجوب اخفاء الصلبان والكتب المقدسة . ونهى عن قرع الناقوس بشدة وعن رفع
الاصوات في الصلاة والجنائزة وما الى ذلك من بقايا العصور الوسطى . ثم اكره بعضهم على
تقبل الاسلام وحض كآبه ومدبر اموره الملم عبود البحري على ذلك ففر هذا هاربا الى
لبنان . وحذا حذوه عدد لا يستهان به من نصارى الاليتين دمشق وطرابلس^(٦٨) .

وشكا دروز الجبل الاعلى امرهم الى الشهابي الكبير واستغاثوا به وبالشخ بشير
جنبلاط فكتب الى صديقيه سمي آغا حاكم اريحا وطبل علي آغا حاكم جسر الشفور وأوفد
بعثة قوامها فارس الشدياق وحسون ورد وبشير حسن ابي شقرا للدرس الموقف . ثم أمر بنقل
الدروز من الجبل الاعلى الى لبنان فتم ذلك على نفقة البشيرين . ودخل الى لبنان سنة ١٨١١
اكثر من اربع مئة عائلة من هؤلاء . الدرود وزعت على قرى الشوف وغيره من مقاطعات
لبنان الوسطى والجنوبية ولا يزالون وقد لقب بعضهم بالحلي^(٦٩) . فانشد شاعر القصر قائلاً :

بشيرٌ خولَ الدنيا بشراً به طاب الوري قلباً وسماً
من الاعلى ترجت فيه قوم أراهم حادث الايام فجماً

(٦٧) ديوان الملم نقولا الترك لفؤاد البستاني ص ٢٤٨-٢٤٩

(٦٨) لبنان في عهد الراء الشهابيين ج ٣ ص ٥٢٤-٥٢٦
CORANCEZ, *Hist. des Wahabis*, p. 126

(٦٩) المؤلف نفسه ج ٣ ص ٥٧٢

اخبار الاعيان لطوس الشدياق ص ٤٨٦-٤٨٧

وقد حاطت بهم من كل فج
فنادوا يا شهاب الصر أشرق
فلا الشهباء عادت مرتجانا
وجرد للاغاة سيف عزم
واتلهم امير الصر ارضاً
حمى لبنان دار الامن طود
فأمسوا آمين على صفاء
عادةُ هُجعت للغزو جما
علينا واقع الاغصام قعا
ولا الاعلى لنا سكتنا ومرعى
فري منه يحنى الصخر قطعا
جموع الخايفين اليها تسمى
برقده العيون تصيب هجعا
به روعوا خطوب الدهر روعاً^(٧٠)

البقاع ارض لبنانية وخسر الكنج يوسف الدورة الاولى ولم يتمكن من فرض سلطته على البقاع كما ابنا سابقاً واضطر ان يفر من وجه الشهابي الكبير وان يلتجئ الى مصر. وادركه الطاعون فقتل فيها سنة ١٨١٤. وتولى بعده عدد من الولاة على دمشق ولم يشجعوا على اثاره قضية البقاع. وبعد ان تولى درويش باشا عليها تزعت نفسه الى موارد البقاع فعين حسن آغا البد والياً عليه وحضر هذا الى عميق في السنة ١٨٢٠ ليجبي اموالها فطرده اهله. فقاتلهم ونهب مواشيهم وانطلق بها الى دمشق واخبر مولاه بما جرى فأمر هذا بالقبض على اللبنانيين الموجودين في دمشق. ولما بلغ الامير اللبناني ذلك أمر اهل البقاع ان يرحلوا الى الجبل وزحلة وعزم على ارسال عسكر الى البقاع ولكنه آثر التريث قليلاً لئلا يرحلوا الى دمشق يعود الى رشده فيذعن للحق. وعندما اصّر الوالي على موقفه من لبنان أرسل الشهابي الكبير ابنه خليلاً بعسكر الى البقاع لطرد الوالي الشامي. ففر هذا بجماسته الى دمشق وساق نجل الشهابي اكراداً وغيرهم الى بتدين وسجنهم فيها^(٧١).

وكان سليمان باشا والي صيدا قد توفي في السنة ١٨١٩ وخلفه في الولاية شاب تزق غرار لم يتجاوز الثانية والعشرين من العمر هو عبدالله باشا ابن علي باشا الحزندار. فوقع بينه وبين زميله في دمشق خلاف حاد حول الولاية. ذلك ان الوالي الشاب طمع بمنصب زميله بالاضافة الى منصبه. وادعى زميله في دمشق انه والي دمشق وطرابلس وصيدا وتأهب الاثنان للحرب والقتال^(٧٢). فشرع والي دمشق بمحاجته الى لبنان وطلب الى احد خواصه ان يكتب الى الشهابي الكبير يوضح رغبة وزير دمشق في الاتفاق معه. فأطلق الامير اللبناني من كان

(٧٠) ديوان تقولا الترك لفرّاد البستاني ص ٢٧٥-٢٧٦

(٧١) اخبار الايمان لطنوس الشدياق ص ٥١٩

(٧٢) الروضة النماء في دمشق الفيحاء للبنان القساطلي ص ٨٥

قد سجنه من اتباع درويش باشا وقابله هذا بالمثل ثم ارسل رسلاً الى الامير يسأله ما يريد . فأجابه الامير اللبناني انه يريد :

- اولاً : رفع الضبط عن القرى التي كان قد ضبطها يوسف كنج باشا مدعياً انها خاصة وزير دمشق مع انها ملك المشايخ الجنبلاطية من قديم الزمان .
 ثانياً : ان يكون والي البقاع خاضعاً لامر امير لبنان كما كان في سالف الايام .
 ثالثاً : ان يرفع والي دمشق ما احده من الضرائب على البقاع
 رابعاً : ان يكون صاحب وادي التيم وصاحب بعلبك تحت اختيار امير لبنان .
 فلما عرض الرسول هذه الشروط على درويش باشا قبل بها وطلب الى الامير اللبناني ان يكتبه بذلك رسمياً^(٧٣) .

في دمشق مأنيه وأحب الامير اللبناني ان يُعلم عبدالله باشا والي صيدا بما تمّ قبل الشروع في العمل فكتب اليه بذلك ولكن الباشا الشاب ابي ان يوافق الامير الكهل في رأيه وآثر اللجوء الى الضف . فأمر بطرد الامير منصور الشهابي من راشيا لانه تقبل حكم منطقتة من درويش باشا . فقام الامير خليل نجل الشهابي الكبير بالف مقاتل الى راشيا ووافاه الى مرجعيون خمماية وخمسون فارساً من فوسان عبدالله باشا . وارسل درويش باشا عدداً مائتاً من الدالاتية وغيرهم وبيع الدمشقيون الدورة الاولى . فهبّ الامير اللبناني الكبير الى جهة القتال بنحو الف رجل وكتب اليه عبدالله يستفزه ويؤكد عليه بوجود ملاحقة الدمشقين « واخراجهم عن حدود وادي التيم » . وكتب ايضاً الى قائد جنوده الهواره بوجود دخول دمشق نفسها والقاء القبض على واليها . وارسل درويش باشا النجدة تلو النجدة ولكنه لم يتمكن من ارسال العدد الكافي من الرجال فان مجموع ما ارسله قارب الثلاثة آلاف مقابل ثلاثة آلاف لبناني وحوالي الالف وخمماية من جنود عبدالله باشا . ولم يكن هذا كل ما في الامر فان اللبنانيين كلوا يقاتلون في سبيل المصلحة العامة والغزة والشرف بينا عساكر الباشا الدمشقي كلوا كلهم من المرتقة . ووقعت بعض الاشتباكات في نقاط معينة من الجبهة كان النصر فيها للبنانيين ونهب رجال الامير الشهابي الكبير مؤونة عساكر درويش باشا في وادي القرن . فأرسل سرعسكر دمشق الى الامير اللبناني يطلب منه الامان والصلح فأجابه الى ذلك . وصرف مناصب لبنان الى اماكنهم

(٧٣) اخبار الاعيان لطنوس الشدياق ص ٥٢٠

المحفوظات الملكية المصرية ج ٣ ص ٢٦-٢٧

وابقى عنده اقاربه والشيخ بشير جنبلاط والشيخ علي العماد والشيخ حمود النكدي . ولما علم سكان ضواحي دمشق بما حلّ بمسكر واليهم خافوا من قدوم اللبنانيين اليهم واخلوا منازلهم وحملوا امتعتهم الى دمشق . فارتجت المدينة وعظم الحطب وحنق درويش باشا حنقاً شديداً^(٧٤) .

ثم اشتدت الفتنة بين عبدالله باشا وبين درويش باشا فاتصل الاول باخصام الثاني في نابلس وكانت تابعة لحكم درويش باشا فألّهم عليه واشتد الحصام بين طوقان وجرار وغير^(٧٥) . فارسل درويش باشا عمكراً اليها بقيادة فيزو باشا . ولما بلغ عبدالله باشا وصول هذا المسكر الى المزريب ارسل عسكره الى جسر المجامع يمتعونهم عن العبور الى نابلس . واستنجد بالشهائي الكبير فأوفد هذا ابنه خليلاً على رأس قوة الى الجسر المذكور . وكان عبدالله باشا قد ارجع حكم جبل عامل الى الشيخ فارس ابن الشيخ نصيف النصار فطلب اليه ان يوافيه الى جسر المجامع برجاله ففعل^(٧٦) .

وبلغ درويش باشا هذا كله فانفذ الى الشهائي الكبير اثنين من خواصه مشيراً عليه بعدم اسعاف عبدالله باشا « وانه مهما يطلبه ينله » . ثم كتب اليه يبنه بتوجيه ايالة صيدا الى عهدته ووقع هكذا : محمد درويش والي الشام وطرابلس وصيدا . فأصرف الامير رسول الوالي من غير جواب وارسل كتاب درويش باشا الى عبدالله باشا فأجابه هذا بان يجمع الرجال ويسير الى جسر المجامع ووقع هكذا : عبدالله والي صيدا وطرابلس والشام . وعندئذ رأى الامير الكهل ان لا بد من الاتصال بالوالي الشاب وادلاء النصح اليه . فقام الى عكة ودخلها بمركب عظيم واطلقت له المدافع من الابراج وقوبل بترديد الاعزاز والاکرام واختلى بالوالي الشاب ثلاث ساعات حاول في اثناهما اقناعه بوجود الاعتدال اذ ان دمشق في نظر الدولة باب الكعبة وانه لا يجوز والحالة هذه اقتحامها فأبى . وعندئذ قام الامير اللبناني الى جسر المجامع وتولى قيادة العساكر بنفسه وزحف على دمشق مرة ثانية . ولدى وصوله الى قرية الجديدة عن طريق كوكب والمعظمية أخرج والي دمشق عساكره كافة

(٧٤) المؤلف نفسه ص ٥٢٠-٥٢٥ ، ولا يخفى على القارئ اللبيب ان شهادة الشيخ طنوس الشدياق في هذا الموضوع مقبولة لانه شاهد هذه الحوادث بام عينه ولانه شايخ اخصام الشهائي الكبير من اقربائه الامراء .

(٧٥) تاريخ جبل نابلس لاحسان النمر ٢١٤-٢٢٢ . وفيه نص بعض الاوارر الصادرة عن درويش باشا الى اعيان نابلس بوجود طرد موسى بك طوقان واخيه رضوان بك وابن اخيه اسعد بك .

(٧٦) لبنان في عهد الامراء الشهايين ج ٣ ص ٧١٠-٧١١

الى قرية المزة في ضواحي دمشق . وفي السادس والعشرين من شهر ايار ١٨٢١ نهض الامير بالساكر الى المزة وهجم على عساكر درويش باشا فازاحهم منها وقتل منهم مئتين وعشرين رجلاً وأسر خمس مئة . وازدحمت فرسان الدالاتية على مابح المياه فانطرحوا صرعى وغرق منهم عدد كبير . وخاف درويش باشا من قيام الدماشقة عليه فأرسل حريمه وامتنه الثمينة الى القلعة وسار بمن بقي عنده اليها وتحصن فيها^(٧٧) . وعفّ الامير عن الدخول الى دمشق وعاد الى مقر قيادته في قرية العظمية . ولكنه رأى ان ضرورة الحرب تقضي بضرب فيوز باشا قبل وصوله الى دمشق فأرسل خليلاً بالف فارس وارسل معه بطلين من ابطال لبنان الشيخ علي جنبلاط والشيخ حمود النكدي . فالتقوا بالبasha في قرية مرجانة وقتلوا من رجاله خمسة وعشرين واسروا مائة وخمسة عشر وسلبوا ثلاثمائة فرس .

الباب العالي واعتبر الباب العالي عمل عبد الله باشا تعدياً مفضوحاً واخلاقاً بالامن وتضييقاً على الحجاج وعقاً بالسلطان واتهمه بالخداع والذور . قال محمد نجيب افندي ممثل الفرز في الآستانة في تقرير رفعه الى ولي امره في القاهرة : ان عبد الله باشا التجأ الى مختلف الحيل ونشر الاخبار الكاذبة وزور المراسيم مدعياً ان الدولة انعمت عليه بولاية الشام وامارة الحج وبسنجقي القدس ونابلس وانه استطاع بذلك من ادخال الغلة على بسطاء العقول وطوائف العربان والدروز واضلهم وامالمهم الى جاتبه . ولو علم هؤلاء حقيقة الحال لانفضوا من حوله واسرعوا الى طاعة الدولة الطيبة^(٧٨) .

اعتبر الباب العالي هذه الاعتبارات كلها ففرل عبد الله باشا من مناصبه الثلاثة ولاية صيدا وولاية طرابلس وقيادة الجردة العامة « باشيرغ » واحالها كلها الى عمدة محمد درويش باشا والي دمشق وامير الحج وطلب الى مصطفى باشا بيلاطلي والي حلب وحلمي ابراهيم باشا والي اذنه ان يتعاونوا ووالي دمشق في انهاء مسألة عبد الله باشا في وقت قريب . فقام مصطفى باشا بما توفر لديه من عساكر متجهاً نحو دمشق . ولدى وصوله الى حمص

(٧٧) اخبار الاعيان لطنوس الشدياق ص ٥٣١-٥٣٣ . ولا يخفى ان الشيخ طنوس هذا رافق امراء المارضة الى دمشق وم الامير حسن والامير فارس والامير سلمان الشهايون وبقي في خدمتهم طوال مدة الحرب وقد اشار الى ذلك في اسفل الصفحة ٥٣٠

راجع ايضاً لبنان في عهد الامراء الشهايين ج ٣ ص ٧١٤-٧١٥

(٧٨) المحفوظات الملكية المصرية ج ١ ص ٣١-٣٢

لبنان في عهد الامراء الشهايين ج ٣ ص ٧١٧

كتب الى اللبنانيين عموماً ان يكونوا في طاعة الاميرين الشهابيين حسن وسلمان . وبعد وصوله الى دمشق كتب الى الشهابي الكبير يخبره انه قدم بامر الدولة لمساعدة درويش باشا على عباده باشا لخروج هذا الاخير من خاطر السلطان. ثم امر الامير بطاعة الدولة وبصرف العساكر وبالرجوع الى محله وارتقى مرسومه هذا بنسخة عن فرمان السلطاني الذي تلقاه من الباب العالي^(٧٩). فأذن الامير لامر السلطان ونهض بمساكره الى خان الشيخ وصرف رجاله ثم قام الى مجدل شمس فبعذران الشوف فبتدين . وكان مصطفى باشا يقدر الشهابي الكبير حق قدره ويعلم انه باستطاعته ان يجارب عساكر الوزراء الثلاثة اجمين^(٨٠) . فحاول استماته وعرض عليه البقاء في الحكم لقاء اداء الطاعة بشخصه لدرويش باشا وابقاء احد اولاده او احفاده رهناً فلم يقبل الامير بذلك . ثم عرض عليه ارسال احد اولاده او احفاده رهناً دون مقابلة درويش باشا فأبى مرة ثانية . وتم الاتفاق بين مصطفى باشا وبين الشهابي الكبير على عزل الاميرين حسن وسلمان وتولية عباس لقاء الف الف غرش من الشيخ بشير جنبلاط وابقاء احد اولاد هذا الشيخ رهناً عند درويش باشا وذلك للحيلولة دون وصول الحزب اليزبكي الى الحكم في لبنان^(٨١) .

ورأى عباده باشا ان يقيم الشهابي الكبير في بيروت لتفكيك الاهالي وازداف المعارضة في لبنان وأصدر امره بذلك الى متسلم بيروت واعيانها^(٨٢) . فقام الامير اللبناني باولاده والرفق نهر الى بيروت وتزل في حرج الصنوبر خارجها . فخرج اليه متمسلاً خليل كاشف ومفتياً الشيخ عبد اللطيف فتح الله ونائب الشرع فيها الشيخ احمد الاغر ورحبوا به ترحيباً ثم اشاروا الى عصاة عباده باشا ورجوا الامير الا يدخل البلد . فعاد عنها الى الدامور ومنها الى مصر كما ابنا سابقاً^(٨٣) .

وخذت حذو بيروت جميع مدن الساحل . ففي طرابلس ونواحيها اعلن علي بك الاسعد

(٧٩) وقد حفظ الامير حيدر احمد المؤرخ صورة هذا فرمان : ج ٣ ص ٧١٨-٧١٩

اطلب ايضاً اخبار الاعيان لطنوس الشدياق ص ٥٣٢

(٨٠) لبنان في عهد الاسراء الشهابيين ج ٣ ص ٧٢٤ اسفل

(٨١) اخبار الاعيان لطنوس الشدياق ص ٥٣٣

(٨٢) عباده باشا الى محمد علي باشا ١٨ ذي القعدة ١٢٣٧ : المحفوظات الملكية المصرية ج ١ ص

٣٤-٣٥

(٨٣) « حيث اهالي بيروت لا يرضون ثقل اهالي الجبل على بدم » الامير حيدر احمد الشهابي .

لبنان في عهد الاسراء الشهابيين ج ٣ ص ٧٢٥

خروجه على عبدالله باشا وجمع رجاله من عكار وقام بهم الى طرابلس فحاصرها واحتل مرفأها وبمجرد وصول فرسان الوزراء الى صيدا وصور سلّمت حاميتها « من غير ضرب ولا قتال ولا مصادمة ولا قواص باروده واحده »^(٨٤) . وقامت العناصر المناوئة لعبدالله باشا في نابلس والقدس وغزة وهاجمت يافه فحاصرتها واضطر عبدالله باشا ان يد حاميته فيها بالمؤن والذخائر من عكة مجراً . وبما قاله عبدالله باشا عن حصار يافة انه « لا يحتمل حال الحامية فيها الى مضايقة ايام طويلة لان جميع تلك النواحي تظاهرت بالعداوة والشر والدايس من جانب الشام الى عساكرنا فيها لم هي منقطعة ابداً »^(٨٥) .

حصار عكة وقام الوزراء الثلاثة مصطفى بيلانلي باشا وحلمي ابراهيم باشا ومحمد درويش باشا بمساعدهم من دمشق الى البقاع فصيذا ومنها الى عكة . ولدى وصولهم اليها في اواخر آب من السنة ١٨٢٢ اطلقوا سبع طلقات من مدافعهم فأجبيوا بطلقة واحدة من عكة وبدأ الحصار . وكانت حامية عكة مؤلفة من الف نفر فقط . وكان يحيط بشخص عبدالله باشا لحراسته متنا رجل من رجال جبلة موطن والدته . وكان لدى الباشا فرقاطة تمخر البحر الى مسافة ثلاثين ميلاً فتأسر السفن المتجهة الى الشام وتأتي بها الى عكة^(٨٦) . وكانت قوة الوزراء الثلاثة تفوق حامية عكة عدداً اربعة آلاف مقاتل ولكنها لم تحز فيما يظهر مدافع حصار فان والي دمشق كتب الى محصل قبرص يطلب مدافع منه وذخيرة فامتنع هذا عن ارسالها مدعياً انها تفقد قبل وصولها اليه^(٨٧) . فاضطر الوزراء . والحالة هذه ان يقتصروا على المناوشات وبعض المفاجئات وعلى عامل مرور الزمن . ولكن هذا فيما يظهر لم يكن في صالحهم لما تتطلبه من مال وازراق . وتأفف عبدالله باشا في نفسه من عجزه بعض عساكره ووقاحتهم ومطالبهم مما اضطره الى انفاق سبعة غروش الى كل منهم يومياً^(٨٨) .

موقف العزيز وكان عبدالله باشا مذ أحسن بالسجن قد بحث كتخذه الى مصر يستنثت بوالها ويقطع عهداً وعهداً على نفسه . ولا تزال بعض رسائله محفوظة

(٨٤) عبدالله باشا الى محمد علي باشا ١٨ ذي القعدة سنة ١٢٣٧ : المحفوظات الملكية المصرية ج ١ ص ٣٦

(٨٥) الرسالة نفسها .

(٨٦) صالح بك الى محمد علي باشا ١٥ ذي الحجة سنة ١٢٣٧ : المحفوظات الملكية المصرية ج ١ ص ٤١

(٨٧) صالح بك الى محمد علي باشا ٧ محرم سنة ١٢٣٨ : المحفوظات الملكية المصرية ج ١ ص ٤٣

(٨٨) صالح بك الى محمد علي باشا ١٥ ذي الحجة ١٢٣٧ : المحفوظات الملكية ج ١ ص ٤١

في قصر عابدين وقد كتبت باللغة العربية . واليك بعض ما جاء فيها : « غب ابلاغ الدعاء التام بالمبادي والخطام والتوسل الى حضرة باري الانام بدوام بقاء وجودكم وقهر عدوكم وحسودكم وحفظكم على الدوام ملحوظين ومكلولين بعين عنايته تعالى التي لا تغفل ولا تنام . وان توج بجزر الحاطر العاطر ولاح في مخيلة الفكر الزاهر السؤال عن حال ولدكم هذا فانه مجده تعالى وحسن انفاسكم الطاهرة حاتراً مرتبتي الصحة والعافية والمنحة الوافية سايلاً جوده جل جلاله وعم نواله دوام بقاء دولتكم وخلود مهابة صوتكم وبلوغكم في الدارين اقصى مرامكم وبقيتكم . » ثم يشير عبدالله باشا الى عريضة سابقة حملها الى مصر احد اتباعه والى عودة كتبخده من مصر يحيطه علماً « بما انطلقت به مكارمكم الملوكانية من الحبايرة والتلطف لولدكم والوعد الكريم الذي فاضت به ابحار حكمكم بالقاء انظار المساعدة والامداد والثقات العناية لنحونا » الى ان يقول . « واكدنا لدى عاطقتكم تمسكنا بمجال حكمكم وكرمكم واتخاذكم بعد الله ماجاً وطيد وعضداً اكد في ساير امورنا وان مالنا تعلق ولا امل في مخلوق في العالم سوى في مرامكم . ثم وضعنا لدولتكم كيفية احوالنا بالتفصيل ورجونا حكمكم الصميم الاسعاف والامداد بما يثبت ويقوي امورنا . » ثم ينهي رسالته هذه بقوله : « وهذه كيفية الاحوال الواقعة اعرضناها مجروفها لدى سدة عنايتكم لكي يكون معلوم دولتكم حيث كرمتم بالتعريف لولدكم مع عبدكم كتخدانا بان في كل جمعة نرسل نعرض احوالنا لديكم مرتين . وعلى كل حال نحن ما لنا شي . وسعادتكم بالوجود فالبلاد بلادكم والقلمة قلعكم والصيله جميعها عيلتكم . »^(٨٩) وحاول الباشا الشاب بعد ثمانية ايام ان يستدرج نابغة عصره الى الدخول في المصمة فكتب له قائلاً : « وحيث ما بقي عند ولدكم عساكر خيل التي ندافع بها الاعداء في الخارج لكي تنكسر عين الموجودين عندنا بالقلمة وبجسب هم دولتكم العاليه العلية فادتنا ما هي شي . ولا تعد من الامور الجسيمة التي تعظم على سعادتكم حيث من كرم الباري همكم وسطوتكم ترزعر الجبال وترهب الاقطار . فاذا كرمتم وحلمتم بارسال اقلما يكون خمماية خيال من جانب البر فهم كفاية الى تفكيك الامور وثبات امورنا جميعها داخلاً وخارجاً كون كما اعرضنا شهرة عنايتكم وسطوة شاهانيتكم القوية ترتد منها الاقطار . فبمجرد الاستماع بورود الخيل من جانب ملوكانيتكم يستولي التقات والاضطراب الى الجميع وتلين عريكة العساكر الموجودة عندنا داخل القلمة ويستمرروا ثابتين مجدماتنا ويتشدد عزمننا وبأسنا . »^(٩٠)

(٨٩) المحفوظات الملكية المصرية ج ١ ص ٣٣-٣٤

(٩٠) عبدالله باشا الى محمد علي باشا ٢٥ ذي القعدة سنة ١٢٣٧ : المحفوظات الملكية المصرية ج ١ ص ٣٧-٣٨

وكان العزيز قويّاً الاحداك عاقلاً حكيماً فامتنع عن التدخل الفعلي في الحرب في الشام وعن ارسال الحيل والفرسان الى عبدالله باشا ولكنه كتب الى الآستانة « وسمي له بالخير لدى محافلها »^(٩١) فتقبل الباب العالي اقتراح العزيز وعرض عليه حلولاً ثلاثة ولكن العزيز لم يقبل بها واصرّ على ابقائه عبدالله باشا في منصبه . فوافق السلطان على ذلك وصدر امره بابقائه عبدالله باشا في منصبه في التاسع عشر من رمضان سنة ١٢٣٨^(٩٢) . فاستدعى العزيز ضيفه اللبناني الشهابي الكبير واخبره بذلك وقال له : « انه لاجل حسن نيتك تسهلت هذه الامور وارمخنا من المتاعب وهذا التعب والمراجعات الى الدولة هو لاجل خاطرنا فقط لا لاجل عبدالله باشا » . ثم وافق العزيز على قيام الامير اللبناني الى عكة لارشاد واليها ولتدبير امورها . وامر سلجقاده سليمان اغا ان يواكبه اليها قائلاً : « اعلم كأنك سائر معي »^(٩٣) . وكتب العزيز الى عبدالله باشا يشير عليه بدفع الف كيس الى مصطفى باشا الذي تولى حصار عكة وأنفق ما أنفق وان يجعل في تقديم المبالغ المطلوب منه الى الآستانة « بصفة شكر وحسن خدمة » ثم اعلمه بان صرفه في الآستانة تمهد بدفع الباقي وقدره عشرة آلاف كيس^(٩٤) .

وقام الامير الشهابي الكبير بمجاشيته الى عكة في مراكب مصرية ثلاثة . ولدى وصوله اليها بعد ستة ايام اطلقت هذه المراكب ستين طلقة فاجابتها عكة باكثر منها واجابها مصطفى باشا بعشر طلقات . وتزل الامير وساحدار العزيز الى عكة فاستقبلها واليها بمزيد الاعزاز والتكريم وتلبا على من في عكة اوامر الدولة ثم قاما الى مسكر مصطفى باشا فاطلعا على محتويات الفرامانات السلطانية وطلبا اليه ان يقوم عن عكة ففعل بعد ان قدم له عبدالله باشا مالا لساكره وجمالا لتاده . وحضّ الامير الباشا على تعجيل المبالغ المطلوبة للآستانة وأصلح ذات الحال بينه وبين اعيان جبل صغد وجبل عامل وقام الى بتدين فوصلها في ربيع السنة ١٨٢٣ وأنشد شاعره قائلاً :

نأى برهةً عنا وعاد بسطوته وبأسر لأتف الضد قد جاء راغما

(٩١) محمد علي باشا الى كتبخده ١٤ صفر ١٢٣٨ : المحفوظات الملكية المصرية ج ١ ص ٤٥
(٩٢) محمد نجيب افندي الى محمد علي باشا ٢٧ رمضان سنة ١٢٣٨ : المحفوظات الملكية المصرية ج ١ ص ٥٥

(٩٣) لبنان في عهد الاسراء الشهابيين ج ٣ ص ٧٢٧-٧٢٨

(٩٤) محمد علي باشا الى عبدالله باشا ٢٩ شعبان ١٢٣٨ : المحفوظات الملكية المصرية ج ١ ص ٥٢
ولعل مجموع المال عشرون الف كيس : ج ١ ص ٥٩

توارى موارد الهلال من العلا واشرق بدرًا ساطعًا في الضيا كما
امير اللوا فخر الولاية وغزم شهاب جلا عنا الحطوب الدوامها^(١٥)

الموره وكانت قد انتشرت الثورة في بلاد اليونان انتشاراً سريعاً وبادت في سبيل اخادها ثلاثة جيوش عثمانية وثلاث عمارات . وفي السنة ١٨٢٤ هلك جيش كامل مؤلف من مئة الف مقاتل « فكبح السلطان جماع كهرياته المهايونية » واستنثت بمحمد علي الكبير استغاثة كلية فلهي العزيز الدعوة وجيش الايات اربعة وارسلها الى المورة بقيادة ابنه ابراهيم . وكتب الى عبدالله باشا يخبره بانه كان قد وجه سؤالا الى الامير بشير الشهابي قبل خروجه من مصر وعودته الى بر الشام يستوضح فيه عدد الجنود الذين يتمكن الامير من جمعهم وارسالهم اذا اقتضى الامر لذلك . وان الامير اجابه بانه عند اقتضاء الحال يقدم عشرة آلاف رجل بقيادة ابنه الاكبر - يقول هذا ثم يطلب الى الباشا ان يتصل بالامير ويطلب اليه ان يرد بوعوده بمناسبة ظهور قضية الموره^(١٦) . فكتب عبدالله باشا الى الامير اللبناني يستقدمه اليه للتداول في بعض الامور فقلل الامير الى عكة وبقي فيها خمسة ايام ثم عاد الى لبنان ويبيده اوامر من والي الايالة تقضي بتجنيد عشرة الاف لبناني لخدمة العزيز كبقية عساكره وذلك « لاظهار شان شهرة رجال الايالة »^(١٧) . وفي منتصف حزيران من السنة نفسها - ١٨٢٤ - وجه الشهابي الكبير ولده الامير أميناً الى مصر باربعين جواداً نجدياً وبعده ثمانية بلع ثمن مجموعها مئة الف غرش . فلما بلغ العزيز قدومه أمر باستقبال رسمي فالتفته المساك بالموسيقى ودخل القاهرة بموكب فخم . ثم استقدمه العزيز اليه وترحب به ولطفه وسأله عن والده ثم سأله عن تجهيز الشجرة الاف مقاتل فأجابه انها معدة . فقال له اكتب الى والدك ان لا لزوم لها وان قواتنا هناك قد لاقت نصراً ميبئاً^(١٨) .

وكان من ذبول ثورة الموره ان ظهر في مياه بيروت في شهر آذار من السنة ١٨٢٦ عدد من مراكب الروم . وما ان وصلت الى بيروت حتى ضربت البلدة بدافعها واتزلت رجالها

(٩٥) لبنان في عهد الامراء الشهابيين ج ٣ ص ٧٣٩-٧٤٦

(٩٦) محمد علي باشا الى عبدالله باشا ٩ وجب سنة ١٢٣٩ : المحفوظات الملكية المصرية ج ١ ص

٩٠-٥٩

(٩٧) لبنان في عهد الامراء الشهابيين ج ٣ ص ٧٥١-٧٥٢

(٩٨) اخبار الاعيان لطوس الشدياق ص ٥٤٦ و ٥٥١ . راجع ايضاً لبنان في عهد الامراء الشهابيين

ج ٣ ص ٧٥٢-٧٥٦

الى البر وحاولت اقتحامها . فاستنجد المسلم والمفتي واعيان البلدة الامير الشهابي الكبير واعلموا الوالي بما جرى . فأرسل الامير ولده خليلًا ببعض الخدم الى حرج بيروت وكتب الى مناصب البلاد ان يوافوه اليها ففتلوا . ولدى وصول الامير اليها استقبله اهله بالفرح والاكرام ومدحوا همته وحماسه . فلما رأت الروم كثرة الجوع وتوارد العساكر اقلعوا الى بلادهم . وعاد الامير الى مقره . ولدى وصول كتنخدا الوالي عبدالله باشا قدم المسلمون من اهل بيروت الشكوى على النصارى بان حضور الروم كان بوسيلة منهم وانهم قبلوا بعضاً من الذين دخلوا المدينة . فأمر الكتنخدا بالقبض على النصارى وتكليب بضائهم في حوائثهم . وهاج المسلمون ففقد من البضائع نحو ربهما . فاضطر الشهابي الكبير ان يتدخل مرة اخرى وكتب الى الباشا يستعطفه ويلتمس منه اطلاق الاسرى وارجاع الاموال . فأجابه وكتب الى النصارى كتاب الامان وأمر الكتنخدا باطلاقهم ففعل . ثم كتب الى الماربيين منهم الى الجبل ان يعودوا الى بيوتهم واعمالهم آمنين^(٩٩) .

سافور
وزاد عطف العزيز على عبدالله باشا فازدادت مطاوعة الشهابي الكبير له وأنعم الباب العالي عليه بولاية طرابلس ثم بتصرفية لواء غزة وياقة والقدس ونابلس وجنين^(١٠٠) . ثم بردت همّة العزيز وقل عطفه على عبدالله باشا تدريجاً فازدادت عناية الباب العالي به واضطر الامير اللبناني ان يستمر في مطاوعته لبعدها باشا . وادى القوتور في العلاقات بين العزيز وبين عبدالله باشا الى اشتداد والي دمشق في مواقفه من زميله في صيدا وطرابلس . وتوترت علاقات الوالين فيما يظهر في السنة ١٨٢٩ عندما أحييت جبال القدس ونابلس الى هدة عبدالله باشا . فكتب والي دمشق آتشر محمود شركس باشا الى المسلمين في هاتين المقاطعتين بعدم اطاعة عبدالله باشا . ففضب هذا وغزل مسلم نابلس الشيخ عبدالله الجرار وولى مصطفى بك طوقان مكانه ثم اخرج القدس وجنين من آل جرّار وولى عليها مملوكين من مماليكه . وعندما علم والي دمشق بهذا طلب الى اعيان نابلس ان يلاقوه الى صفد ليضرب عبدالله باشا في عكة . فخرج معظمهم الى صفد ولكن محمود باشا اخذهم ولم يحسر على الحضور . فعاد الزعماء الى نابلس وقرروا الكتابة الى عبدالله باشا بالطاعة .

(٩٩) عبدالله باشا الى محمد علي باشا ١٩ شبان ١٣٤١ : المحفوظات الملكية المصرية ج ١ ص ٧٣

لبنان في عهد الاسراء الشهابيين ج ٣ ص ٧٧٩-٧٨٤

اخبار الاعيان لطنوس الشدياق ص ٥٥٩-٥٦٠

(١٠٠) محمد علي باشا الى سلحداره في مكة : المحفوظات الملكية المصرية ج ١ ص ٥٦-٥٧

ولكن الشيخ عبدالله الجرار لم يقبل بذلك نظراً لما بينه وبين اسمد بك طوقان من المناظرة والخلاف . فكتبوا الى الباشا واجابهم بالقبول قائلاً : « لقد أمرنا ولدنا اسمد بك ان الذي يريد من مشايخ جبل نابلس الدخول بالطاعة والانقياد لطرفنا يمرض عنه لدينا وان شاء الله تعالى كل من طرق بابنا لا يشاهد الا جهر الخاطر . »^(١٠١) وهكذا فان جميع هؤلاء الزعماء انقادوا للطاعة ما عدا الشيخ عبدالله الجرار والشيخ حسين عبدالمهدي . فانتهر اسمد بك طوقان الفرصة وأوغر صدر الباشا على هذين الزعيمين . فارسل الباشا يستدعيها اليه فذهب الشيخ حسين عبدالمهدي الى عكة وقدم الطاعة وعاد الى صديقه الشيخ عبدالله الجرار يخبره بغضب الباشا . فامتنع هذا عن الذهاب الى عكة والتجأ الى حصن له في سانور كان قد شيده احد اجداده الشيخ محمد الدائر وصمد به في وجه عثمان باشا الكرجي والي دمشق سنة ١٧٦٤ . ثم اضاف الشيخ يوسف الجرار الى هذا الحصن جناحاً خاصاً وزاده مناعة ونقش فوق بابه :

كن رزيناً اذا أتتك الزايا وصبوراً اذا أتتك مصيه
فالليالي من الزمان حبالى مثقلات يلدن كل عجيه

وخرج على احمد باشا الجرار واعتصم بهذا الحصن نفسه فحاصره الجرار فيه ولم يقوَ عليه . وعندما طلب عبدالله باشا الى الشيخ عبدالله الجرار ان ينقاد الى الطاعة ويسلم الحصن اليه أبى واغلق الابواب في وجه رسل الباشا . فأمر الباشا عندئذ بمحاصر سانور ودكها دكاً وارسل المدافع والتناير وبدأ الحصار ودام مدة دون جدوى . وتكاثر المقاتلون من جبل نابلس وحاصروا عسكر الباشا فاضطر هذا ان يستغيث باللبناني الكبير وكتب اليه بذلك^(١٠٢) .

فجمع الامير اللبناني رجاله الى بتدين في اواخر السنة ١٨٢٩ وسلم الاحكام وفصلها الى ابنه امين . ثم قام ومعه ولده خليل وحفيده محمود الى صيدا فكعة فوصلها في اول السنة ١٨٣٠ واستقبل استقبالاً رسمياً بالمساكر والموسيقى وتزل في قصر البهجة خارج عكة . ثم قام باربعة انفار من عبيده الى المدينة ودخل على الوزير فاستقبله استقبالاً حاراً . وفاوضه في أمر القلعة وحثه على اخذها وألح عليه في ذلك قائلاً : « ان لم آخذ هذه القلعة اقتل نفسي »

(١٠١) من عبدالله باشا الى احمد اغا النمر وكيل مسلم نابلس ٢٦ ربيع الاخر سنة ١٢٩٦ : تاريخ

جبل نابلس لاحسان النمر ص ٢٤٠-٢٤١

(١٠٢) لبنان في عهد الامراء الشهابيين ج ٣ ص ٨٠٠-٨٠٢

فاجابه الامير انه سوف لا يفتأ يهجم عليها حتى يدخلها . فدعا له الوزير بالتوفيق وكتب الى الامير امين ان يكون كوالده في تنفيذ الاحكام . وقام الشهابي الكبير بالذين من اللبنانيين الاشداء الى الناصرة فجبن فسانور . والتقاء كتحدا عبدالله باشا بالموسيقى والبارود وتجدد الحصار . ورأى الأمير أولاً ان يعمل لتأمين مؤخرته وعلم ان النابلسيين الخارجين عن الحصار قد تجمعوا ومهم ثلاث مئة فارس من العرب واتوا الى قريتي عجه وفندقوميه وبدأوا ينعون السكر عن الماء . فأحب ان يستعد لضربهم . ولكن حماس الرجال حال دون ذلك فقام الشيخ نصيف النكدي بمائتي رجل من دير القمر والمناصف ونهض الشيخ فارس والشيخ حسين اللحوقيان بنحو مئة رجل وهجموا جميعاً على القوم المجتمعين في صحراء عجه وكانوا قد اصبحوا جيشاً وافراً فانهزموا الى عجه فجدوا في اثرهم وحصروهم فيها فانهمزوا منها فأحرقها اللبنانيون وأعملوا في اقفيتهم السلاح فقتلتوا وقبضوا على الباقين منهم في تلك القرية وجعلوا يذبحونهم كالغنم . فقتل منهم تسعة وستون رجلاً واعتقل اربعة عشر بعضهم من المشايخ بني الجرار . فارسل الامير تلك الرؤوس والامرئ الى الباشا وقبل الشيخ نصيف النكدي وأمر له بنرس من الخيل الحياض . وفي اليوم التالي سار بعض الرجال الى التري المجاورة للنهب . فاخشي الامير من وقوع القننة بين رجاله وبين عسكر الباشا . فوجه الامير بشير ملحم الشهابي والامير عبدالله حسن الشهابي ليرجعا اللبنانيين فأدركهم عند قرية كفرراعي حيث كان النابلسيون فاذا نار الحرب قد اشتعلت بين اللبنانيين وبين النابلسيين . فانهزم النابلسيون من الاتراس الى داخل البلدة وتمحصوا فيها . فدخل اليها اللبنانيون وشرعوا يحرقونها . فانهزم النابلسيون منها وقتل منهم ستة عشر رجلاً . فالتهمى اللبنانيون بالنهب وعندئذ ارتد النابلسيون عليهم وقتلوا منهم سبعة عشر رجلاً . فانفض كل الى مكانه .

وكان الامير الكبير قد اكل استعداداته فنهض من الغد بجانب من الرجال يحرق القرى القريبة من المعسكر . فلما أبصره النابلسيون فروا من تلك القرى فأحقرت جميعها . فوقع الرعب في قلوب الناس وبدأوا يسلون للامير فنته فنته . واستنسل الوزير الموقف فاستدعى من كان عنده من مشايخ زبالس وأخذ يتهددهم قائلاً : « الا تعلمون ان اللبنانيين مشهورون بالشجاعة والبطش وان اميرهم هذا ما سار في مهمة الا وأيده الله فيها . اما سمعتم كيف شنت عساكر يوسف باشا الكنج في قرية عرطوز وكيف ظفر بمساكر درويش باشا في راشيا وكيف هزمهم في المزة . » فاعتذر المشايخ قائلين ان ما فعله اصحابنا في نابلس لم

يكن بطلنا أصلاً . ثم تعهدوا له بالو وافر فأنعم عليهم بخلع وصرّفهم في بلادهم كما كانوا وسلمهم كتب امان لغيرهم . فوضعوا اولادهم رهناً عند الوزير وخرجوا من عكة داعين للسلم والمصالحة .

وكانت قد تهدمت اعالي القلعة من ضرب المدافع وانقطع الزاد عنها فخرج اصحابها بعيالهم وامتعهم . وكان الامير خليل يحافظ عليهم في الطريق الى ان يصلوا الى اوطانهم . وكانت مدة الحصار ثلاثة اشهر . فأمر الوزير بهدم القلعة وآبارها وألبس مدافعه جوخاً احمر للتدليل بانها هي التي فتحتها . وكتب الى الامير والكتخدا ان يقوما بالسكر الى عكة ففلا. وعاد الامير الى لبنان فالتقاء الامراء والوجوه الى صيدا، ثم حضر الى بتدين مؤيداً. ^(١٠٢)

(١٠٣) ليس لدينا من المراجع في تفاصيل الحصار سوى رواية واحدة هي رواية الامير حيدر احمد ج ٣ ص ٨٠٠-٨١٢ . وقد سبكا الشيخ طنوس الشدياق بعبارة صحيحة فاقتبسنا مضمونها : اخبار الاعيان ص ٥٦٢-٥٦٦ .

أما قول الاستاذ احسان النسر في كتابه «تاريخ جبل نابلس» ص ٢٤٢ انه لم يكن في سانور احد سوى الشيخ عبدالله الجرار وبعض ذويه، وانه لم يكن عند اهل نابلس علم بالامر، فهو مخالفة تردّها تفاصيل الامير حيدر الوافية الكافية .

الفصل الرابع

العزیز والسلطان

الحرب الشامية الاولى

١٨٣١ - ١٨٣٣

محمد علي

وكان قد ضاق صدر المصريين عام ١٨٠٥ من اهمال الولاة وجشعهم وعريضة الساكر وطمعهم وفساد القضاة وانهطاطهم . فاجتمع زعماؤهم وعلماؤهم وجمهور من العامة في الثاني عشر من ايار في بيت القاضي ونادوا « يا رب يا متجلي اهلك العثماني » . وفي اليوم التالي قاموا الى دار محمد علي وقالوا له : « اننا لا نزيد هذا الباشا والياً علينا » فسأل « من تريدون » فاجابوا بصوت واحد « لا نرضى الا بك وتكون والياً علينا بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة وحب الخير » .

هذه شهادة لها اهميتها ولاسيا وانها صدرت عن شخص عُرف بابتعاده عن العزيز وعدم مطاوعته له اعني المؤرخ المعاصر الشيخ عبد الرحمن الجبرتي . والواقع ان محمد علي كان ذكياً عاقلاً بعيد النظر واسع الحيلة صديقاً صدوقاً باراً برفاقه محباً شفوفاً مسلماً مخلصاً في دينه يقوم باداء فرائضه بكل نشاط .

ورقع الزعما . والعلما . عريضة رفعوها الى الباب العالي وألحوا فيها بتمين محمد علي والياً عليهم . وعاونهم في ذلك سفير فرنسة في الآستانة . فكان لهم ذلك . وتقلد العزيز الحكم بارادتهم فعاونوه في السنوات الاولى في تثبيت دعائم حكمه وتذليل العقبات التي وضعا في

طريقه بعض رجال الآستانة والانكليز والماليك^(١٠٤). وكان ما كان من امر القبودان باشا سنة ١٨٠٥ وموسى باشا سنة ١٨٠٦ والحلة الانكليزية على مصر سنة ١٨٠٧ وذبح الماليك سنة ١٨١١ ومؤامرة لطيف باشا سنة ١٨١٣

وتبصر الباشا في امره منذ اوائل عهده فسمى سياً حثيثاً لا يجاد المال الذي لا يقوم حكم بدونه فلجأ بدافع العجلة الى وسائل سلفائه وطالب متولي الحسبة العام المعلم جرجس الجوهري بحساب السنوات الخمس الفائتة فحصل بذلك منه مبلغاً كبيراً ثم فعل بباقي متولي الحسبة في الاقاليم ما فعله بجرجس فاجتمع لديه مال وافر ثم عاد الى جرجس مرة ثانية فدفعت هرب والتجأ الى الماليك. واستولى يوماً على بضاعة قادمة من السويس ولم يتركها الا بعد ان دفع اصحابها الف كيس. واتهم يوماً آخر بطريرك الروم بانه ساعد جرجس الجوهري على الفرار ففرمه بتهمة وخمين كيداً. ووضع يده على عقارات نساء الماليك ولم يردها الا مقابل مبلغ من المال. ولكنه على الرغم من هذا بقي بحاجة الى المال فجمع العلماء والوجهاء واطلمهم على متأخرات المسارك واقترح ان يُصرح له بقبض ثلث ايراد الاملاك. فضج هؤلاء وقالوا قد يصير هذا عادة فقال الباشا نكتب فرماناً ونقول فيه لعن الله من يفعله مرة اخرى. فرضي الوجهاء وانفجرت الازمة الى مدة قصيرة. ثم عاد الى نفسه وشحن ذهنه فعاتت الى مخيلته اختباراته الاولى في التجارة. فاحتكر التبغ والتبناك وانقص كمية الذهب من العملة. ثم أمر بفتح جميع الصكوك القارية وانكر صحة معظمها. وأمر كشاف الاقاليم بالاستيلاء على جميع هذه المقارات باسم الحكومة. ولم يبق منها على اصله الا ما كان عقاراً مبنياً او بستاناً. والواقع ان العزير لم يقتصب ملكية الاراضي اغتصاباً فالسلطان سليم الفاتح كان قد اعتبر نفسه مالكاً لاراضي مصر وترك لصاحب الارض حق الانتفاع بها. وما فعله هو كان قد سبقه الخلفاء اليه من قبل منذ الفتح العربي. ولم يحدث هؤلاء بدورهم شيئاً جديداً اذ ان مصر لم تعرف نظاماً آخر للملكية الاراضي طوال العصور القديمة. وبالتالي فجل ما فعله العزير من هذا القبيل لم يكن سوى محاولة تطبيق القانون والانتفاع به. وتبع هذا الانقلاب بطبيعة الحال انقلاب آخر هو احتكار الحاصلات. ذلك ان الفلاح المصري لم يكن من اليسار بحيث يستطيع اداء الضرائب نقداً فأداها عيناً وانشأت الحكومة المخازن لجمعها كما انه لم يستطع ان يتناع لنفسه ادوات الزراعة والمواشي

(١٠٤) للتبسط في هذا راجع تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر لعبد الرحمن الرافعي

والبذور فقدمتها الحكومة قرصاً وازافت ثمنها الى مجموع الضرائب وسرى مبدأ الاحتكار من الزراعة الى الصناعة . فبعد ان صار العزيز مالك الاراضي الوحيد والتاجر الوحيد لمنتجاتها صار ايضاً الصانع الوحيد لصناعاتها وزاد ايراده زيادة كبيرة^(١٠٥) . ووافق هذا كله عصر اضطراب وحروب في اوروبة فزاد الاقبال على الانتاج المصري وزادت ارباح العزيز .

وكان من جراء هذا الوفرة ان أصبح لدى العزيز من المال ما يكفيه للقيام باصلاح عسكري طالما تاقت نفسه اليه منذ ان سمع بنابوليون ولمس تفوقه وكانت عساكر العزيز ترداد تمرداً وعريضة وعبثاً بالطمأنينة والامن على الرغم من تيقظه الشديد ورغبته الاكيدة في القيام بواجبه تجاه الاهالي . ففي السنة ١٨٠٧ بعد فوز العزيز على الانكليز تخلى العساكر عن راياتهم وانسلوا جماعات وزرافات الى المدن والقرى للنهب والقتل وعندما أقبل هو يُحمد هذه الروح ثاروا عليه واطلقوا نيرانهم على منزله . وزاده حادث لطيف باشا الذي اشرنا اليه سابقاً شوقاً الى الاصلاح لانه تيقن انه مهيا ادى للسلطان وحاشيته من الخدمات فانه لن يؤيده الا رغبة في تزييله عن سُدته . فصمم على ايجاد جند مدرب على الاساليب الغربية مُفعم بروح الطاعة والولاء يعتمده في دره الملمات والتغلب على المحن . فاصدر أمره بانشائه سنة ١٨١٦ ولكن هياج الجند الالبانيين وتمردهم جعله يوجب التدبير الى وقت آخر . وعاد الى تنفيذ مشروعه بعد اربع سنوات فتعاقد مع الكولونيل سيف الشهير وفتح مدرسة لتدريب الضباط في محل بعيد عن القاهرة وجنودها القديما . في اسوان ثم شكل اورطه الست الاولى في مطلع العام ١٨٢٣ واتزها الى القاهرة بعد ذلك بعام واحد وانشأ المدارس المختلفة والمشاكل والمصانع حتى اصبح جيشه اقوى جيوش السلطنة بأسرها . وكان في الوقت نفسه يعد اسطولاً للدفاع البحري بشراء وحداته من اوروبة اولاً ثم بانشاء دار للصناعة في الاسكندرية .

اسباب الحرب :

١ - طموح العزيز
وما ان استتب له الحكم على هذا الوجه حتى بدأ بصره يمتد ويرتفع . فتطلع أولاً الى ايلة صيدا المجاورة والى سناجق غزة ويافا والقدس وذلك لسببين هاميين اولهما عطف سليمان باشا والى هذه الايالة (١٨٠٤-١٨١٩) على المهاليك

(١٠٥) المؤلف نفسه ص ٥٩٣-٥٩٦ . اطلب ايضاً تاريخ الجبرني تحت اخبار السنين ١٢٢٧ (١٨١٢)

و ١٢٢٩ (١٨١٥) و ١٢٣١ (١٨١٦) .

واتصاله بهم . والثاني انه كان يُعد الصدة لحرب شاقّة في الحجاز فشر بما لهذه الايالة ولما كان يجاورها من اهمية ستراتيجية واقتصادية . ولذا فاننا نراه يبعث بالرسالة تلو الاخرى الى الآستانة يشكو فيها سليمان باشا فيقول انه على اتصال بالماليك يمدّمهم بالمشورة ويمرضهم عليه ويطلب غزله ثم يرجو الغزو عن الكنج يوسف باشا وارجاعه الى منصبه والياً على دمشق^(١٠٦) . ويقول العزير في رسالة اخرى ارسلها الى الباب العالي ان الماليك قرروا الفرار عند الحاجة الى ايالة صيدا وانه قد يضطر هو ان يجهز حملة لمحاربتهم في نواحي العريش وغزة فيقوم اذ ذاك سليمان باشا «بتحرير الوشايت ودرس الدسانس»^(١٠٧) ويلوح لنا ان العزير اوغر في هذا الوقت نفسه الى ممثله في الآستانة او الى بعض اصدقائه فيها ان يسعوا لتوجيه ايالتي صيدا ودمشق وطرابلس ايضاً الى عهده . ودليلنا على ذلك ان الباب العالي في اواخر السنة ١٨١٢ اشار الى رغبة العزير في توحيد هذه الايالات اليه في ديباجة فرمان اصدده اليه وأوصاه فيه بسليمان باشا في اثناء وجوده في الحجاز . وينص فرمان بان هذا الرجا انما نشأ عن وقوع النفرة في قلب العزير لعدم توجيه ايالات سليمان باشا اليه^(١٠٨) . فيقوم العزير لهذا ويقصد ويمد هذا الاماع نوعاً من التوبيخ . ولكنه لا ينكره فيما يظهر . والثابت الزامن دون اي جدل هو ان العزير كان قد سبق له ان كتب الى وكيله في الآستانة محمد نجيب افندي يطلب اليه «ان يحسّ النبض فاذا وجد الجوّ موافقاً عرض على الساب العالي جعل مصر ولاية ممتازة شأن ولاية الجزائر الى ان تنتهي حرب الحجاز فتعود مصر الى حالها الاول وذلك لاسباب اهمها اضطراب الاحوال في اوروبة واحتمال تدخل الدولة في بعض الحروب . ومنها ان تجارة مصر مع الخارج ضرورية لها وان امتيازها يضمن لها حياداً وبالتالي كسباً تجارياً كبيراً»^(١٠٩) . ونراه في الوقت نفسه يطعن حكومة الآستانة فيعرف انه قبل ان يحظى بولاية الوزارة وفي بداية وزارته صدرت عنه بعض حركات تنتفي بظاهرها مع الرضى العالي ولكنه يؤكد ان ليس له امل ما دام حياً سوى ابراز حسن الخدمة واطهار الصداقة والعبودية للدين والدولة^(١١٠) . ثم يرجو الحضرة السلطانية في عريضة خاصة

(١٠٦) محمد علي باشا الى الباب العالي ٢٥ شبان سنة ١٢٣٥ (١٨١٥) : المحفوظات الملكية المصرية

ج ١ ص ١

(١٠٧) المحفوظات ايضاً ج ١ ص ٢

(١٠٨) محمد علي باشا الى الباب العالي ٥ شوال سنة ١٢٢٨ (١٨١٣) : المحفوظات ايضاً ج ١ ص ١٠

(١٠٩) ٢٧ شوال سنة ١٢٣٥ (١٨١٥) : المحفوظات ايضاً ج ١ ص ١٣

(١١٠) محمد علي باشا الى الصدر الاعظم غير مؤرخ : المحفوظات نفسها ج ١ ص ١٣

الا تصفي الى وشايات حساده فيقول : « قد بلغني ان بعض عبيدكم ممن يحسدني على ما نلت من العناية والعطف يقول ان محمد علي باشا ليس بذهاب الى الحجاز وانما يجيز المسافر للوصول الى غرض خصوصي^(١١١) . »

وجد العزيز الجو غير ملائم فأعرض عن الطلب وبات يتربص الفرص للعودة اليه واكتفى الى حين بتقوية الروابط بينه وبين الشوام فأوى كل من أوى اليه منهم واكرم مشواه . ومن هنا ذهب الشهابي الكبير اليه وتزوله عليه كما اشرنا الى ذلك سابقاً ومن هنا ايضاً عطف العزيز على عبدالله باشا والي صيدا والاهتمام باسره . وما فعله لبشير وعبدالله فعل مثله لآخرين عديدين منهم السياسي والقاضي والتاجر . واشتد اهتمام العزيز في هذه الفترة ايضاً بميشه واسطوله ومصانعه وتنوعت مطالبه فازدادت رغبته في الشام وعظم ميله اليها . وهكذا فاننا نراه يستخرج الفحم الحجري من لبنان في اواخر السنة ١٨٢٣^(١١٢) ويستورد بذور النيلة من فلسطين بكميات كبيرة^(١١٣) والحطب منها ايضاً لصنع السواقي^(١١٤) في السنة ١٨٢٦ . ونراه ايضاً يكتب في السنة ١٨٢٨ الى والي حلب فيطلبه بفاجعة نوارين ويوجب اصلاح ما تبقى من السفن ويرجوه ان يسهل نقل الاخشاب اللازمة من الاسكندرونة الى مصر^(١١٥) . ثم يكتب اليه بعد سنة شاكرًا اهتمامه باسره اوانس الحكيم الذي اوفد الى ديار بكر لابتياع النحاس^(١١٦) . ويكتب بعد هذا بقليل الى والي دمشق يوصيه باحمد بك احد رجاله « الذي اوفد خصيصاً الى بر الشام لابتياع الحيل^(١١٧) . »

وشق اليونان عصا الطاعة في السنة ١٨٢١ وخرجوا على السلطان وايدتهم دول وشعوب فكسروا جيوش السلطان مراراً وطرودوا عماله فالتجأ الى العزيز يطلب معونته البحرية والهرية وأصدر له فرماناً يدعوه الى ذلك ويخوله ولاية الموره . ولبى العزيز الطلب واتخذ

(١١١) غير مؤرخ : المحفوظات ايضاً ج ١ ص ٥ - ٦

(١١٢) محمد علي باشا الى عبدالله باشا ٥ صفر ٧ جمادى الاولى سنة ١٢٣٩ (١٨٢٣) : المحفوظات

ايضاً ج ١ ص ٥٨ و ٥٩

(١١٣) محمد علي باشا الى عبدالله باشا ٣ جمادى الاخرة سنة ١٢٤١ (١٨٢٦) : المحفوظات ايضاً

ج ١ ص ٧٢

(١١٤) محمد علي باشا الى عبدالله باشا غرة شبان ١٢٤١ : المحفوظات ايضاً ج ١ ص ٧٢

(١١٥) المحفوظات نفسها ج ١ ص ١٠١

(١١٦) محمد علي باشا الى محمد رؤوف باشا ٢٢ ربيع الاول سنة ١٢٤٤ (١٨٢٨-١٨٢٩) : المحفوظات

كذلك ج ١ ص ١٠٧

(١١٧) المحفوظات ايضاً ج ١ ص ١٠٨ - ١٠٩

الثورة في جزيرة كريت وفي الموره نفسها وبعد ان أتم كل هذا وفي اواخر السنة ١٨٢٧ كتب العزير الى ممثله في الآستانة محمد نجيب افندي ان يسعى لدى ثلاثة من كبار رجالها شيخ افندي وياور افندي ومهرى افندي لاحالة الشام الى عهده مشيراً الى مطامع الدول وحراجه الموقف ومؤكدًا ان المحافظة على مصر وما يليها تقضي بضم الشام اليها . وكتب الى شيخ افندي مباشرة موجباً اسناد ايالة الشام اليه وايالة الروملي الى ابنه ابراهيم « كي يجندا من يلزم ويقوما بالدفاع عن الملة »^(١١٨).

ثم اعلن الروس الحرب على الدولة . واقتحموا حدودها وتوغلوا في اراضيها فعاد السلطان الى العزير يستعين به فكتب هو يؤكد ولاءه ويظهر استعداده لارسال جنوده الى الآستانة ولكنه رأى ان طريق البر اسلم من طريق البحر نظراً لاتفاق الدول وكثرة بوارجهم في البحر^(١١٩) فأجابه الصدر الاعظم انه لا يرى ما يوجب القلق من ارسال الصاكر بحراً لمحاربة الروس وانه اذا كان لا بد من ارسالهم برًا عن طريق يافه فانه يرى من الموافق ان يسيروا دفعات متوالية لا دفعة واحدة^(١٢٠).

وأعاد العزير الكرة قبيل الحرب الشامية كما سنرى فطالب بالايلات الشامية للمرة الاخيرة . ولا يفهم الحاحه هذا الا على ضوء رغبة صادقة في اصلاح الدولة او يأس حلّ به من امكانية الوصول الى تقاهم مع رجال هذه الدولة او الاثنيين معاً او ان يكون العزير طامعاً بما طمع به عظماء الرجال من قبل فرأى في احتلال الشام مقدمة حربية لعل اوسع واكبر . والواقع انه كان مسلماً مخلصاً في دينه يقوم بأداء الفرائض بكل نشاط وانه كان يعترف بتأخر « الملة المحمدية » بتبوير ذلك العصر وبضعف الدولة العثمانية وبعجزها عن حماية هذه الملة وبوجوب الصمود لطمع اوروبة وجشعها ودفع شرها عن « الملة » . فهو يقول في كتاب ارسله الى ابنه ابراهيم عند تازم العلاقات بينه وبين الباب العالي وبمناسبة تدخل الدول الاوربية ما معناه : « لا تهدف الدول الى تعضيد الدولة العثمانية ولكنها ترمي الى اضعاف الطرفين كي يتسنى لها الاستيلاء على البلاد الاسلامية بسهولة . ولذا فان قبول تدخل هذه الدول خيانة للملة ولتأم استقلالها . فبدلاً من ان نقبل هذه الخيانة فنذكر باللجنة الى يوم القيامة

(١١٨) ٢٣ و ٢٧ جمادى الاولى سنة ١٢٤٣ (١٨٢٧) : المحفوظات كذلك ج ١ ص ١٠٠ - ١٠١

(١١٩) محمد علي باشا الى محمد نجيب افندي غرة جمادى الاخرة سنة ١٢٤٤ (١٨٢٨) : المحفوظات

نفسها ج ١ ص ١٠٩

(١٢٠) احمد خلوصي باشا الى محمد علي باشا ٣ رجب سنة ١٢٤٤ (١٨٢٩) : المحفوظات ايضاً ج ١ ص ١٠٩

اجدر بنا ان نموت في سبيل الدين فنشيد بذلك دنيانا وآخرتنا معاً . هذا اذا غلبونا واما اذا لم يغلبونا ولم يستطيعوا ان يفعلوا شيئاً فحينئذ نجد في الدنيا اللذة التي يبحث عنها الناس في الآخرة . فيدوي في الآفاق صدى بطولتنا وسممتنا الطيبة ويذكرنا العالم بالخير الى يوم القيامة . هذا لا ريب فيه . والله كفيل بعباده^(١٢١) . ولا يمكن اعتبار هذا ضرباً من ضروب الدعاية التي تكثر في ايام الحروب اذ انه صدر عن العزيز لابنه وبشكل سري وبقي مطوياً مئة عام ولم يظهر للنور الا في السنوات الاخيرة . ولكنه قد يكون من باب تعبير النفس تجاه عمل ادى القيام به الى اشتباك المسلمين بعضهم ببعض والى سفك الكثير من الدماء . وقد يكون خالياً من هذا صافياً والله اعلم .

ومما لا شبهة فيه ان الدولة العثمانية كانت آنئذ في تاخر وانحطاط وان كبار الرجال فيها كانوا يحسدون العزيز على ما ناله من الجاه والمال وانه كان بينهم رجل ذكي فطن سبق العزيز الى مصر وتنازل عن حكمها مكرهاً ممسكاً بعمالة للعزيز متربصاً لفرصتها . وتفصيل ذلك انه لدى خروج الفرنسيين من مصر نشبت منافسة بين يوسف باشا الصدر الاعظم وبين حسين كوجك باشا امير البحر (قبودان باشا) . وكان هذا رفيق صبوة السلطان فتغلب على الصدر وجعل احد مماليكه محمد خسرو باشا والياً على مصر . وكان تحت امره هذا الوالي قائدان للجند احدهما العزيز نفسه والاخر يوسف بك . ورأى العزيز ان الوالي الجديد لا يصلح للحكم سبي التدبير محباً لسفك الدماء . وكان قد أسرع هذا الوالي الى اغتنام عداوة نشبت بين عثمان بك البرديسي وبين محمد بك الالفى زعيمى المماليك وارسل جنوده لقتال البرديسي بفرقتين احدهما بامرة العزيز والاخرى بقيادة يوسف بك . فتقدمت القوتان نحو دمهور حيث رابطت قوة من المماليك بقيادة البرديسي نفسه . ولكن يوسف بك سبق العزيز واقتتل مع البرديسي وحده فانقض هذا بفرسانه واخترق جيش يوسف بك وداس الرجال تحت حوافر الجياد وأعمل بهم السيوف فقتل منهم خلقاً كثيراً . فنسب يوسف اندحاره هذا الى امتناع العزيز عن المعاونة ووشى به الى الوالي محمد خسرو باشا . فنارت في قلب الباشا ثورة غضب وصمم على الايقاع بالعزيز فاستدعاه اليه بعد العشاء . ولكن حيلة الوالي لم تنظر على العزيز فاجابه انه سيذهب الى مقابلته في رابعة النهار وعلى راس جنوده^(١٢٢) . وحرك العزيز جنوده على الباشا فطلبوا دفع الجماكية والمتاخرات . وكانت فتنة ادت الى خلع خسرو

(١٢١) المحفوظات ايضاً ج٦ ص ٢٨٦

(١٢٢) هي حوادث مشهورة عالجها معظم المؤرخين واجاد في عرضها الياس الايوي . اطلب كتابه

واخراجه من مصر . فعاد الى الآستانة متأثراً وساعده الحظ فأصبح من رجال البطانة لا بل رجلها . فأوغر الصدور واقض على العزير مضجعه واكرهه على مناصبة العداء والاستعداد للقتال في سبيل الدفاع عن النفس .

ويلوح لنا ان العزير ينس من امكانية الوصول الى تفاهم ودي وانه رأى ان لا بد من اللجوء الى العنف ليضمن شيئاً من الاستقرار والطمأنينة ولاسيما وانه كان قد بذل ما في وسعه لارضاء السلطان وبطانته فدوخ الوهابيين واخضع اليونانيين واطهر استعداده لمحاربة الروس . وكان ايضاً لا ينفك عن تقديم الهدايا . فانه في مطلع السنة ١٢٤٣ (١٨٢٧-١٨٢٨) وحدها قدم على سبيل الهدية الشخصية نصف مليون غرش الى السلطان نفسه وخمسين الف غرش الى السلحدار الشهرياري وخمسين الف غرش الى الصدر الاعظم وعشرين الفاً الى شيخ الاسلام وخمسة عشر الفاً الى القبودان باشا وخمسة عشر الفاً غيرها الى كتبخدا الصدر الاعظم ومثلها الى الرئيس افندي (وزير الخارجية) وخمسة وسبعين الفاً الى جهات اخرى^(١٢٣) . فكل هذا وعندما لبي الطلب لمحاربة الروس وصد طغيانهم اراد ان يرسل جيشه برأ الى الآستانة ولكنه مُنع بلطف وأشير عليه ان يرسله بجرماً وقيل له اذا كان لا بد من ارساله برأ فلي دفعات متوالية ١١

ينس العزير من امكانية الوصول الى تفاهم ودي مع رجال الآستانة ولجأ الى العنف في السنة ١٨٣١ ولكنه هل اراد الاستقلال والانفصال عن الدولة ام انه اراد ان يفرض ارادته فرضاً فيبعد اخصامه عن السلطان ويحيطه باصدقائه ويستولي على الشام وغيرها فيصبح لديه من المال والرجال والنفوذ والعظمة ما يمكنه من تسيير سياسة السلطنة كما يشاء . دون التعرض الى امور اخرى قد تثير جماعة المسلمين عليه وتخلق ازمة دولية كبرى لا يمكن التكهن عن نتائجها ؟ نقول ليس لدينا من كلام العزير نفسه ما يجوز لنا القول انه طلب الانفصال عن الدولة او انه رغب فيه . وجل ما هنالك اقوال غيره عنه . واهم هذه ما جاء في رسالة ابنه اليه بعد وصوله الى كوتاهيه في اوائل السنة ١٨٣٣ وبمناسبة قيام وفد مفاوض الى الاسكندرية . فابراهيم يوجب عدم التردد ويرى ان المصلحة تقتضي بالمطالبة باستقلال مصر وبضم قبرص واضالية وعلائية وايح ايل الى مصر وكذلك تونس وطرابلس القرب . اما بغداد فانها بعيدة عن مصر قليلة الفائدة ولذا فانه يكتبني بالمفاوضة بشأنها ولا يتمسك بضمها

(١٢٣) محمد علي باشا الى محمد نجيب افندي ١٥ محرم سنة ١٢٤٣ (١٨٢٧) : المحفوظات الملكية

الى مصر . ويرى القائد ابن العزيز ان الاستقلال هو خير وسيلة للتخلص من ظلم حكومة الآستانة وعدم وفائها ومطالباتها بالمال^(١٢٤) . وكان قد سبق لابراهيم ان كتب الى والده قبل ذلك بشهر واحد يقول ان مصلحة مصر تقضي بمتابعة الرحف لحلع السلطان والتخلص من ظلمه ومكايده ولاجل اس ولي العهد مكانه وانه لا يخشى تدخل الدول الاوروبية اذ انها لا تستطيع منعه لان الوقت لا يسمح بذلك الى ان يقول « اما اذا شرعت هذه الدول في تقسيم السلطنة العثمانية فليس له الا ان يدعو بالسلامة ويحصل ما سيحصل في اقرب وقت حتى تنتهي هذه المشكلة ويؤول الخوف^(١٢٥) » . ومن هذه الاقوال ما فاه به الامير الشهابي الكبير حليف العزيز الى المعلم حنا البحري في اثناء حصار عكة : « انا كنت اتشم وما ازال متعشماً في افندينا انه يحارب السلطان محمود لاجل فتح الاقطار الواسعة والاقاليم الشاسعة لا ان يتحصن في جبال الدروز ويمتشي بها^(١٢٦) » . ومنها ايضاً ما قاله هذا الامير نفسه في الرد على اوامر قائمقام الصدارة التي قضت بوجود التعاون مع عبدالله باشا : قال الامير لابنه الامير امين « اصرف التاتار وقل له عندما تسال الدولة عن رعاياها تسال الرعايا عن الدولة » الى ان قال « يا ولدنا شوفوا احوال هذه الدولة وضعفها الله يخلصنا منها^(١٢٧) » . وهناك طائفة من التصريحات رجال الآستانة موجهة الى الحكام والاعيان في بر الشام تنهم العزيز بالخيانة والخروج فتجعل تجزئة الدولة هدفه والاستقلال غايته . ولكن هذه التصريحات وهي ضرب من الدعاية التي تكثر في الحرب لا يمكن قبولها لما يعوزها من العدالة . فقد تصدق الحكومات فيما تنشر في مثل هذه الظروف ولكنها لا تنشر كل الحقيقة وهي خاضعة بطبيعة الحال لظروف قاهرة تكرمها على التلفيق والنطق بالباطل

وهكذا يكون العزيز وهو ذاك الرجل العاقل المترن قد تطلب ما يمكن تحقيقه اعني السيطرة على الشام بالاضافة الى مصر والحجاز كي يتمتع بشي . من الاستقرار ويطمئن الى المستقبل . وهو ما ذهب اليه المسيو ميمو قنصل فرنسه العام آنثرى واقرب المقربين للعزيز بين

(١٢٤) تجد النص التركي في كتابنا « اسباب الحملة المصرية على سورية » ص ٥٧ ومعه ترجمته الى الانكليزية .

(١٢٥) ابراهيم باشا الى محمد علي باشا ١٩ شعبان سنة ١٢٤٨ (١٨٣٣) : المحفوظات المصرية ايضاً ج ٢ ص ٢٢٥

(١٢٦) حنا بحري الى الباشماون ٢٧ رمضان سنة ١٢٤٧ (١٨٣٢) : المحفوظات ايضاً ج ١ ص ٢١٩

(١٢٧) القس انطون الحلبي الى البطريرك يوسف حبيش ٢ كانون الثاني سنة ١٨٣٢ : الاصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا - لنا ايضاً - ج ١ ص ٩٨

قناصل الدول اجمعين . فهو يقول مراراً وتكراراً في تقاريره السرية لسفير فرنسا في الآستانة ووزير خارجيتها في باريز ان العزير ما فتى يصرح خاصةً وعمامةً انه لن يخرج على مديحه الشرعي وان مصلحته وضميره يمنانه عن ذلك وانه لن يتوك مجالاً للدولة ان تبعده عن مصر حتى ولو كان بإمكانها ان تفعل ذلك^(١٢٨) . ويرى هذا القنصل عينه ان لا أساس لما ظهر في بعض الجرائد والمجلات والكراريس من ان العزير يطمع في عرش السلطنة وسدة الخلافة^(١٢٩) . واكنه ربما يرغب في ضم بعض الاقطار العربية ليحل منها نواة تنفع في حال تأزم العلاقات الدولية وتجزئة الدولة العثمانية فتصبح دولة مستقلة له ولاولاده من بعده^(١٣٠) .

والان وقد ثبت لدينا ان جل ما طمح اليه العزير عند السنة ١٨٣١ هو توجيه بعض الاقطار الشامية اليه يحدر بنا ان نحدد هذا البعض . فهل طلب العزير احالة ايالة صيدا الى عهده ام ايالة دمشق ام الاثنين معاً ام طرابلس وحلب ايضاً ؟ نقول ليس في المحفوظات الملكية المصرية ما يوضح بجلاء تام هذه الناحية من البحث فهناك غموض في التعبير ان في الوارد الى القاهرة او في الصادر عنها . ويستدل من كلام القنصل الفرنسي الميسو ميمو ان هذا الامر لم يكن محددًا ميمناً في مخيلة العزير نفسه فانه قصد اولاً الوصول الى عكة والاستيلاء عليها وعلق امر دمشق واياتها الى ان يكون قد انجز هذه المهمة الاولى ومثله فيما يتعلق بسائر الايالات^(١٣١) . وكأني بالعزير يقول في الرد على هذا السؤال « نبدأ بالاستيلاء على عكة ولكل حادث حديث » .

- (١٢٨) ميمو الى سبستاني في ٣٠ اذار سنة ١٨٣١ : الحرب الشامية الاولى لجورج دوان ج ١ ص ١٦
(١٢٩) ميمو الى سبستاني في ١٠ آب سنة ١٨٣١ : المؤلف نفسه ج ١ ص ٦٢ . اما موقف ابراهيم باشا من العرب والخلافة فانه له وحده فيما يظهر . اطلب تفاصيل ذلك في كتابنا اسباب الحملة المصرية على سوريه ص ٨٣ - ٩٦
(١٣٠) ميمو الى سبستاني ٨ اذار سنة ١٨٣١ : المؤلف نفسه ج ١ ص ٩ راجع ايضاً كتابنا اسباب الحملة المصرية ص ٢٤-٢٥ وفيه من كلام ترجمان عباده باشا ما يؤيد هذا الرأي .
(١٣١) ميمو الى سبستاني ١٩ ايار سنة ١٨٣١ : المؤلف نفسه ج ١ ص ٣٢-٣٤ راجع ايضاً المحفوظات الملكية المصرية ج ٣ ص ٧٤ رقم ١٥٧٦ وكذلك لبنان في عهد الامراء الشهابيين ج ٣ ص ٨٣٧ : «فارند عليه جواب ان الدولة انصت على ابراهيم باشا في ايالة صيدا وان طرابلس تابعة صيدا من وقت عباده باشا » .

٢ - موقف أخلص العزيز الطاعة للسلطان ربع قرن من الزمن ومحضه الأود والنصح. ولم يكن السلطان قليل الوفاء. جاحداً او غيباً ابله لا تمييز له او متطرفاً في الحمية على التقاليد لا يذعن للحق ولا يريد الاصلاح. ولكنه قبض على زمام الحكم في عصر تأخر وانحطاط كثرت فيه الثورات الداخلية ان في البلقان واليونان او في الاناضول والعراق والجزيرة العربية ومصر^(١٣٢) واشتدت فيه روح الاستنثار بالسلطة والانفصال عن السلطنة فتأصلت في نفس السلطان روح الخوف والجزع ولم يعد بإمكانه الصبر على ما تزل به فعز و اضطرب . وقل في ذلك العصر الاخلاص للدولة والملة وغلب فيه الحسد على الرجال والطمع . فسدت البطانة وبفسادها فسدت الاحكام . وكان كلما ازداد العزيز قوة وغزاً ازداد حسد حساده في الآستانة وكثرت وشاياتهم . وفي مقدمة هؤلاء محمد خسرو باشا المشار اليه آنفاً .

وارتاب السلطان في امر العزيز منذ اول عهده في الولاية كما سبق فأوضحنا ولكن الظروف قضت بغض النظر عنه فبقي في منصبه حتى قوي وعظم شأنه . وكان من دواعي الارتباب في نوايا العزيز اتصاله ببعض الخارجين على السلطان من زعماء البلقان والاناضول والشام وقبول بعضهم في مصر مما ادى الى امتعاض السلطان والى توجيه التكدير الرسمي له بذلك . قال محمد رؤوف باشا في رسالة له الى محمد علي باشا في منتصف السنة ١٨١٦ : « لا بد من القاء القبض على محمد بك ابن حسن باشا اللوانلى الذي التجأ الى مصر والتحق بجيش ابراهيم باشا - لا بد من القاء القبض عليه وارساله الى الآستانة او اعدامه في مصر خوفاً من ان يقال ان جميع المضغوط عليهم من قبل الدولة العلية يلتجئون الى طرفكم »^(١٣٣) . وكان قد سبق للعزيز ان قبل كنج يوسف باشا في حماه وحاول استصدار العفو عنه واعادته الى منصبه السابق والياً على دمشق^(١٣٤) . وفي ربيع السنة ١٨٢٨ كتب الصدر الاعظم محمد سليم باشا الى العزيز يقول ان ما ورد من النقود الذهبية المصرية من فئة الخيرية يحمل العبارة «ضرب في مصر» وان مثل هذا العمل يُعدُّ تجاسراً على الحضرة السلطانية ولذا فانه يجره ان يمتنع عن سك النقود الذهبية^(١٣٥) . وبعد هذا ببضعة اشهر لم يتورع العزيز عن مخالفة السلطان في

(١٣٢) والاشارة هنا الى ثورة علي باشاقيه ديلنلي وحرب العرب وثورة البوشناق ومصطفى باشا

الاشقودري وداود باشا وغير ذلك . اطلب اخبارها في تواريخ الدولة الثانية .

(١٣٣) المحفوظات الملكية المصرية ج ١ ص ١٦

(١٣٤) المحفوظات نفسها ج ١ ص ٢ و ٤

(١٣٥) المحفوظات ايضاً ج ١ ص ١٠٢

موقفه من الدول بعد واقعة نوارين الشهيرة . فبينما نرى السلطان يرفض مطالب الدول المتحالفة نرى العزير يتفق مع هذه الدول على وقف القتال في المورده ويمقد اتفاقاً مباشراً معها على الجلاء^(١٣٦) . فاشتد اضطراب السلطان وذويه ورأوا في هذه الاعمال وغيرها برهاناً ساطعاً على قلة اكتراث العزير بهم وخروجه عنهم . وعندما قضت الظروف بالتصير عن هذه المخاوف قال احداهم احمد خلوصي باشا قائمقام الصدارة في رسالة له الى والي دمشق في صيف السنة ١٨٣١ : « لا يخفى ان والي مصر يرسي الى غرضين ظاهري وهو الانتقام من عبدالله باشا وباطني وهو الوصول الى بر الشام مطمح انظاره والاستقلال بها كما استقل بمصر . واستعداده الحربي السريع تم بناء على اتفاق سابق احكمت عراه بينه وبين ذلك الثائر الحثيث الاشقودري بواسطة خال هذا الاخير جلال الدين الاخيرلي الذي ارسل من قبل ابن اخته انشاء قيامه بالثورة الى مصر ليستنجد بوالها فقرر قرارهما على ما يظهر على ان يقوموا بمجرعة مزدوجة في آن واحد . وبما ان كل هذه التعليمات قد حصلت وقر الرأي عليها سرّاً بين اربعة من رجال الدولة المخلصين فيلزم عدم اطلاع الغير عليها »^(١٣٧) .

٣ - قضية وأدت اصلاحات العزير الداخلية الى فرار ألوف من الفلاحين المصريين الى غزة ويافه وتوابعها فطلب العزير الى عبدالله باشا والي صيدا وصاحب عكة ان يأمر بعودتهم الى مصر وحرره بذلك رسالة طيبة في منتصف اذار من السنة ١٨٣٠ اشاد فيها بما عاهد نفسه عليه من عمران الاقاليم المصرية وكيف انه تحقيقاً لهذا الامل قام باعماله الاصلاحية اقليماً اقليماً ثم كيف ان اهالي اقليم الشرقية المتاخمة لولاية عكة لم يفتقروا للحكمة من هذه الاعمال الخيرية ففر بعضهم الى ولاية عكة وانه لما ادركوا خطاهم وهما بالعودة الى اوطانهم لم يُسمح لهم بذلك ثم يبين العزير لعبدالله باشا انه يجب على شيوخ القرى في ايالته الا يعارضوا في رجوع هؤلاء الى مصر ويرجوه ان يبين ذلك للشيوخ كي لا يضطروهم بدوره ان يأمر بجلب الفارين وجلب الشيوخ معهم ايضاً . ويختم بقوله : « ان ولاءنا لذاتكم هو الذي اقتضى تسطير ما ذكر اعلاه »^(١٣٨) . فأجاب عبدالله باشا بانه سيسعى لارجاع الفلاحين

(١٣٦) اطاب تفصيل هذا في تاريخ الحركة القومية ونظام الحكم في مصر لعبد الرحمن الرافي ج ٣

٢٢٥ - ٢٢٩ ص

(١٣٧) المحفوظات الملكية المصرية ج ١ ص ١٢٣ - ١٢٤

(١٣٨) المحفوظات الملكية ايضاً ج ١ ص ١١٥

الى مصر ولكنه يرى ان الباب العالي لا يرضى عن تدخل والى بشؤون والى اخر^(١٢٢). فعظم ذلك على العزيز وشق عليه ولاسيما وانه كان قد فعل ما فعل من اجل هذا الزميل الشاب عندما غضب الباب العالي عليه وغزله من منصبه . وما زاد في الطين بلة ان عبدالله باشا ضبط بضائع لتجار مصريين في اياته مدعياً انها لتبرهم من ابناء نابلس^(١٢٣) . فحنق العزيز عليه واغتاز وشكا زميله الى السلطان طالباً وضع حد لهذه المسالة فاما ان يعين وزير آخر على عكة او ان يصار الى حل آخر لهذه المشكلة . فأسف الباب العالي كل الاسف ورأى ان يترث العزيز في الامر فيُنصح المجال للباب العالي لتوبيخ والى صيدا وتأديبه . وغمرت رسالة التأسف هذه من قناة العزيز فأشارت في الديباجة الى ان الجيوش التي حشدتها العزيز للتعاون مع الباب العالي في تأديب مصطفى باشا الاشقودري لم تجتمع الا للزحف على عكة^(١٢٤) .

ثم اوفد الباب العالي اثنين من وكلاء رؤساء الاقلام في الصدارة مصطفى نظيف افندي واحمد توفيق بك الى مصر للتدقيق في هذه القضية نفسها . فاستعرض العزيز امامها تطورات القضية فذكر خروج عبدالله باشا عن طاعة السلطان عام ١٨٢٢ وتدخله هو في الامر واستصداره العفو عنه واعادته الى سابق عهده في الحكم وكيف انه انتظر مقابل هذا صداقة ولباقة وانتلافاً ثم كيف ظن بعض ولاة الامور ان عبدالله رجل بامكانه ان يقف في وجه محمد علي فناصروه وشجروه وبالتالي كيف اجترأ على اشيء تمس بشرف محمد علي وكيف التمس العزيز عندئذ غزله من منصبه . فرأى مصطفى نظيف افندي ان الحق بجانب العزيز واكد صدور نطق شاهاني باحالة ايالة الشام الى عهدة العزيز لتأمين الحج وطلب الى العزيز ان يعامل عبدالله باشا واعوانه بالحسنى والا فليعمل السيف برقايمهم^(١٢٥) . ويلوح لنا ان الباب العالي اتا أوعز بهذه الوعود الشفوية ليكسب شيئاً من الوقت ضرورياً لبدء القتال ولاسيما وانه كان قد كتب بعكس هذا كله الى والى دمشق ووالى صيدا^(١٢٦) .

(١٢٢) عبدالله باشا الى محمد علي باشا ١٤ شوال سنة ١٢٤٥ (١٨٣٠) عابدين بجزبرا محظفة ١٢ رقم ٦٩

(١٢٣) محمد علي باشا الى برتو افندي كتنخدا الصدر الاعظم ٢٢ ذي الحجة سنة ١٢٤٦ (١٨٣١) :

المحفوظات الملكية المصرية ج ١ ص ١٢١

(١٢٤) احمد خلوصي باشا الى محمد علي باشا غير مؤرخ : المحفوظات أيضاً ج ١ ص ١٢٢

(١٢٥) محمد علي باشا الى ابراهيم باشا ٢٧ رجب سنة ١٢٤٧ (١٨٣١-١٨٣٢) : المحفوظات نفسها

ج ١ ص ١٦٠ - ١٦١

(١٢٦) المحفوظات ج ١ ص ١٢٣ = ١٢٤ وقد اشرنا اليها سابقاً . راجع ايضاً رسالة احمد خلوصي باشا

الى عبدالله باشا ٢ رجب سنة ١٢٤٤ (١٨٣٩) : المحفوظات نفسها ج ١ ص ١٠٩

وتشير بعض المراجع غير الرسمية الى عوامل اخرى عاونت على تآزم العلاقات بين العزير وبين عبدالله باشا منها ان عبدالله باشا استدان من العزير مبلغاً كبيراً من المال عند حلول غضب السلطان عليه سنة ١٨٢٣ وان هذا الدين بلغ ٧٥٠.٠٠٠ من الفرنكات الافرنسية وان العزير طالبه به مراراً فلم يلقَ منه سوى المماطلة والتسويق^(١٤٤). ومنها ايضاً ان الباشا الشاب لم يصن لسانه عن القذف بحق العزير مدعيّاً انه نأثر خارج عن طاعة السلطان^(١٤٥). ومنها ايضاً ان عكة اصبحت قبيل الحرب الشامية الاولى مركزاً للتأمر على سلامة العزير وسلامة ابنه اراهيم^(١٤٦). ومنها كذلك قول قنصل فرنسة العام في الاسكندرية الميسو ميسو ان العزير طمّيع بصندوق عبدالله باشا وما حواه من المال وان المال المخزون في هذا الصندوق بلغ ثلاثين مليوناً من الفرنكات الافرنسية وان الاستيلاء عليه كان من اهم اهداف الحملة على الشام^(١٤٧).

حيطة العزير

واحتاط العزير في أمره فشاور صديقه قنصل فرنسة العام في الاسكندرية قبل بدء القتال ببضعة اشهر وألح عليه بوجوب ارسال احد معاونيه في القنصلية الى باريز ليطلع الحكومة الفرنسية على ما ينوي العزير ان يقوم به ويطلب موافقتها ومعونتها لدى المحافل البريطانية التي ما فتئت تنظر اليه بشي. من الريبة والتحفظ. وما ان أشار القنصل الى اعتدال العزير وتسامحه في إدارة كريت حتى قال العزير ألم ترَ كيف اكرمتُ رئيس اساقفتها فقدمته على فقهاها وخلعتُ عليه فروة ورفعتُ عنه وعن ذويه ما كان يثقل كاهلهم من الضرائب؟ ثم أضاف وسينال نصارى الشام من الاستقلال والسعادة ما لم يروه من قبل وسيقرعون اجراسهم متى شاؤوا. اكدوا لحكومتكم ولمواطينكم تحموري في هذه الامور^(١٤٨).

ولقد أصاب العزير عندما طلب الى الحكومة الفرنسية ان تعاونه لدى المحافل البريطانية

(١٤٤) كادالفان وبارو: الحرب الشامية الاولى ص ٣٤

(١٤٥) راجع مثلاً بيان عبدالله باشا الى ارباب الامر والنهي في القدس ٢٩ جمادى الاولى سنة ١٢٤٧

(١٨٣١) في كتابنا الاصول العربية الخ ج ١ ص ٦٤-٦٧

(١٤٦) كادالفان وبارو: المؤلف نفسه ص ٤١

(١٤٧) ميسو الى سبستيانى ١٩ ايار سنة ١٨٣١: الحرب الشامية الاولى لجورج دوان ج ١ ص ٣١-

٣٢. اطلب ايضاً المحررات الايطالية السياسية لانجلوسماركو ج ٨ ص ١٣٥ راجع ايضاً

كتابنا اسباب الحملة المصرية ص ٢٨-٣٠

(١٤٨) ميسو الى سبستيانى: المذكورة نفسها المشار اليها آتفاً.

ذلك ان ساسة الانكليز آتخذ في مقدمتهم الفيكونت بالمستون كانوا يؤثرون التعاون مع فرنسه على التعاون مع اية دولة اخرى . و يرون في حكومتها الدستورية الجديدة وفي اسطولها خير معونة للصدور في وجه الحكومات المستبدة كحكومة روسية والنمسة وبروسية وتركية . وكانوا آتخذ منهم كمين في مشاكل سياسية دولية غريبة كشكلة بلجيكة واسبانية اقرب بكثير اليهم من اي حدث شرقي - مشاكل تتطلب تعاوناً وثيقاً بينهم وبين فرنسه . ويستدل من المحفوظات البريطانية ان وزير الخارجية البريطانية الفيكونت بالمستون كان لا يزال متردداً في اعماق نفسه متسائلاً ما اذا كان قيام دولة فتيحة في مصر والشام اقرب لمصالح دولته من الاستبقاء على الدولة العثمانية بكاملها ام لا او بعبارة اخرى ما اذا كان الحل الذي لجى اليه في اليونان هو ما يجوز تطبيقه في مصر والشام ام لا^(١٤١) ؟

وكان العزيز قد نال من انتصاراته في الحجاز ونجد وفي المره ما أغناه عن اية دعاية مصطنعة في العالم الاسلامي وقد طبق صيته الافاق وأصبح ذكره على لسان كل متمسك بالشرع والتقاليد وصار بإمكانه ان يعارض السلطان ذاك الذي اجترأ على كل قديم فتريا بزى الافرنج وأمر من أمر منهم في الجيش والاسطول مما دعا الى مطارضة رجال الدين وتجربهم عليه حتى اعترضه احدهم على جسر غلظه وقال له « كاور سلطان » سلطان كافر ا

القوى المتقاتلة

١ - جيش العزيز وكان جيش العزيز مؤلفاً من سبعين الف مقاتل نظامي منهم ثمانية عشر الاياً من المشاة وثمانية الايات من الحياالة والاي من المدفعين ووحدات واسطوله من المهندسين واللغامين . وكان لدى العزيز ايضاً عدد يصعب تحديده من العساكر غير النظامية يكثر ويقل حسب الظروف والحاجة . وكانت البعثة الفرنسية العسكرية التي ترأسها الجنرال بوايه قد اشرفت على تدريب المشاة فقامت بجهتها خير قيام من حيث انتظام الحركات ودقة اطلاق النار وسير طوابير الهجوم . وعني الكولونيل راي الافرنسي بمدفعية الجيش فادخل عدة تمسينات بمصانع الاسلحة في القاهرة . وكان ابراهيم باشا قد أعجب كل الاعجاب بالحياالة الفرنسيين ابان حرب المورة ووصف ما شاهده لوالده فقرر هذا اعادة تنظيم الفرسان في جيشه وعهد بذلك الى الضابط الفرنسي بولان دى تارليه

(١٤٩) اطب انكلترة والفرم للدكتور هارولد تمبرلي فهو افضل ما صنف في سياسة بريطانية آتخذ

فشكل سبعة الايات لهذه الغاية واختار جنودها من بين عربان الصحراء وابتاع خيولها من الشام ودنقله وعتادها من فرنسه . فجعل ابراهيم من هذه الايات السبعة لواءات ثلاثة وكان الجنرال بوايه قد اقترح على العزير تأسيس مدرسة اركان حرب لتنظيم القيادة فوافق العزير على ذلك وفتحت هذه المدرسة ابوابها في ربيع السنة ١٨٢٥ برئاسة ضابط افرنسي آخر هو جول بلانا ومعاونة الاخوين أدولف وبولان دي تارليه وكلاهما من امهر ضباط اركان الحرب في فرنسة . ولكن الطلبة لم يتذوقوا علوم هذه المدرسة وآثروا الطيش والكسل فبقي جيش العزير ناقصاً في ضباطه^(١٥٠) . ومن هنا قول الجنرال ويغان ان ضباط الجيش المقاتل عام ١٨٣١ كانوا يمشون بالقوانين والانظمة ولا يكثرثون بمجنودهم ويؤثرون السير في مؤخرة هؤلاء الجنود بدلاً من الراس . ولكنه يعترف بفضل الجنود انفسهم فيذكر جهيم للقتال واندفاعهم في سبيله بشجاعة ونشاط ويرى انه وان اعوزهم المظهر فانهم ظفروا بالجوهر وانه كفاهم فخراً ان تطلب حكومة شارل العاشر معونتهم لفتح الجزائر . وكان القائد الاعلى لهذا الجيش ابراهيم باشا نجل العزير الاكبر قوي البنية صحيح العقل واسع الحيلة حازماً عادلاً شفوفاً كريماً . وكان شديد اليقظة كالصقر يدهش جنوده بسرعة تنقله بينهم بنام نومهم ويأكل اكلهم ويجلس معهم ويضعي الى اقوالهم فيث في قلوبهم الشجاعة .

وكان لدى العزير في لبنان من جنود حليفه الامير الشهابي الكبير ما لا يقل عن عشرة الاف مقاتل وقد صهرتهم الحرب رجالاً خبوا عساكر الدولة فيها مراراً وانتصروا عليها تكراراً يحسنون الزماية ويعرفون الارض ويتقدون حماسة للتخلص من الاتراك وظلمهم .

وكان العزير قد أعاد النظر في اسطوله بعد نوارين فابتاع ما ابتاعه من اوروبه وانشأ ما انشأ في حوض الاسكندرية واستقدم رجال الاختصاص من فرنسه وبريطانية فأصبح لديه في السنة ١٨٣١ ثلاث وعشرين سفينة حربية منها سبع فرقاقات وست قروبات وثلاثة اباريق وسبع سفن مدفعية وغيرها من النقالات الصغيرة . وكان عثمان نور الدين بك قائد الاسطول قد صرف سبع سنوات في اوروبه اجاد في خلالها بعض لغاتها كالافرنسية والايطالية ووقف على مدى تقدم العلم فيها فعاد يؤيد الاصلاح مجد ونشاط وتقرّب من العزير فمال شطراً وافراً من عطفه وأصبح نافذ الكلمة . وكان ذكياً خفيف الروح يتودد لرؤسائه ومرؤوسيه

(١٥٠) اطاب التاريخ الحربي لصر محمد علي الكبير للفاطم عبد الرحمن زكي ص ٢٥٧ - ٢٧٤

فتألق نجمه وعقدت له راية الاسطول . وكان يماونه في سفينة القيادة كل من الكابيتين بوسون والكابيتين هوسار الافرنسيين .

٢ - جيش السلطان
 وكان السلطان محمود الثاني قد قضى على الانكشاريين في السنة ١٨٢٦ واستماض عنهم بجيش نظامي جديد لا يروى على خمسة واربعين الفاً . وعلى الرغم من شدة اهتمامه بلبس هؤلاء . ومأكلهم وراتبهم فانه لم يوفق الى تدريبهم فأعوزهم النظام والانضباط واسترسلوا في النهب والسلب . وكان على رأسهم رجل بدأ حياته حمالاً فجاسوساً ثم أصبح جليلاً فضابطاً فقائداً أعني حسين باشا سرعسكر الجيش العثماني . ألبسه السلطان كسوة القيادة العليا المظف التصير المزركش واهدى اليه سيفاً مرصصاً بالالماس وجوادمين مطهين وقلده رتبة المشيرية ولقبه بالمشير الاكرم وولاه مصر وكريت والحبشة .

سير القتال

١ - قيام الحملة
 وخصص العزيز لبد القتال خمسة ايات من المشاة والاي الحرس واربعة ايات من الحياطة واورطة من المدفيعين واربعين مدفع ميدان وعشرين مدفع حصار وعشرة مدافع هاون والف خيال من البدو فبلغ مجموعها خمسة وعشرين الف مقاتل على ان ينضم اليها لدى وصولها الى عكة عشرة الاف مقاتل لبناني . ورأى العزيز ان تقوم هذه الحملة في اوائل السنة ١٨٣١ ولكن انتشار الكوليرا في مصر أخر مسيرها حتى خريف هذه السنة . فقامت طلائعها في الثالث والعشرين من شهر تشرين الاول من معسكر الحانقاه بقيادة اللواء ابراهيم يكن باشا ابن شقيقة العزيز ومرّت ببليس والصالحية فقاطبه وبئر البد فالعريش ثم خان يونس وغزة ومنها اتجهت الى يافه . وكان ابراهيم باشا نجل العزيز قد قام من الاسكندرية على رأس ستة الاف مقاتل متجهاً مجراً نحو يافه فوصلها في الثامن من تشرين الثاني . وما ان رسا اسطوله في مياهها حتى تزل وجهاتها وعرضوا عليه التسليم . فأوفد بلوكاً واحداً لهذه الغاية واستولى على مدافعها وذخايرها . ثم اندفعت كتية نحو بيت المقدس فاحتلتها احتلالاً . وقام القائد الاعلى الى عكة فبلغ حيفا في السابع عشر من تشرين الثاني وجعل منها قاعدة للهجوم على عكة^(١٥١) . وفيها تقبل طاعة شيوخ نابلس وجنين الشيخ حسين عبد الهادي والشيخ قاسم الاحمد والشيخ عبدالله الجرار واستمع الى شكواهم من

(١٥١) راجع رسائل ابراهيم باشا الى والده في هذه الاونة : المحفوظات الملكية المصرية ج ١

سعد بك طوقان وقبل التماسهم فعين الشيخ حسين منسلماً على جنين وبلادها والشيخ محمد القاسم منسلماً على نابلس وأحال اقليم المشاريق الى عهدة الشيخ عبدالله الحرار واقليم بني صعب الى عهدة الشيخ يوسف الجيوسي والشيخ عبد الوهاب الجيوسي . وكتب الى الامير بشير الشهابي يفيد به بحضوره واستيلائه على يافه وحيفاً^(١٥٢) . وفي العشرين من الشهر نفسه قامت طلائع الجيش الى عكة للاستكشاف وواكبها وحدات الاسطول .

٢ - **مهارة عكة** . وكانت عكة آنذ بلدة صغيرة لا يتجاوز عدد سكانها بضعة الاف نسمة . وكانت قاعدة ايالة صيدا وحضنها المنيع . يُجَدَّقُ بها سور داخلي هو سورها الصليبي القديم رمه ظاهر العمر في السنة ١١٦٣ للهجرة (١٧٤٩) وتوجه بابيات اربعة لا تزال محفوظة على بلاطة رخامية في متحف البلدة :

بأمر الله هذا السور قاما بعكته من فتى بالحير قاما
ابي الفرسان ظاهر المفدى اعز الله دولته دواما
فباطن بابه الرحمات فيه وظاهرة العذاب لمن تعاما
وذا بالله صار حمى فأرخ بناك الله فخرًا لا يسامى

وكان هذا السور يشكل محسماً هندسياً ضلعان من اضلاعه يواجهان البحر في الشرق والشمال ويشكلان عند التقائهما زاوية حادة اشتهرت في اعمال الحصار . اما الاضلاع الثلاثة الاخرى فانها كانت توازي الشاطئ فتحيط بالبلدة من الجنوب والغرب والشمال . وكان ارتفاع هذا السور في ضلعيه البريين حوالي الاثنى عشر متراً وحوالي العشرة في اضلاعه البحرية . وكان له في نقاط معينة ابراج بارزة تزيد مناعة وقت الحرب . وكان يجدد به عند الهرب خندق عميق عريض انشأه الحرار بعد حصار نابوليون سنة ١٧٩٩ . ولم يكن البحر عميقاً عند الاسوار البحرية فشكل بقرب قعره عقدة حربية عرقلت اعمال القصف في اثناء اي حصار بحري في ذلك العصر . وكان قد انشأ الحرار في اواخر عهده ايضاً سوراً اخر من ناحية البحر يحيط بالسور القديم ويوازيه في الشكل والعلو ولكنه يفوقه في العرض . فان عرضه كان يتراوح بين الثلاثين والستين متراً . وزاده مناعة بابراج مربعة اهمها برج الباب « قبر برجى » عند الزاوية الشرقية الجنوبية وبرج النبي صالح بعده فبرج السيل وبرج القومندار او برج الزاوية

(١٥٢) يوحنا بحري الى الباشماون ١٤ و ١٥ جمادى الاخرة سنة ١٢٤٧ (١٨٣١) : المحفوظات ج ١

فخرج كريم بتشديد الياء . ثم احاط هذا السور الخارجي بخندق يماثل الخندق الداخلي . وحين ترايد لحوف عبدالله باشا من جنده في الداخل واعدائه في الخارج اكل فيما يظهر قلعة داخل السور الداخلي كان قد بدأ بانشائها الجزار من قبله وأطلق عليها اسم برج الخزنة . وكان قد بولغ في تحصينها فحضرت فيها الآبار وانشئت فيها المستودعات العميقة والمسالك المرجة والابواب الخفية وما الى ذلك من اساليب الدفاع في ذلك العصر . أكلها عبدالله فيما يظهر فأمر بجفر الاسطر التالية فوق بابها وهي لا تزال قائمة في مكانها :

بنا وآسس هذا الحصن المبارك تقوية للدين المين
عبدالله باشا والي ايلات صيدا ومتصرف لواغزة ويافه
ومحافظ مكة ونغور بلاد الشامية راجياً بذلك الثواب
من الملك الوهاب يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من
اتى الله بقلب سليم
سنة ١٢٣٤ (١٥٣)

وكان صاحب عكة كما اوردنا سابقاً لا يزال شاباً فائشاً طائشاً معجباً بنفسه وبقلعته . وكان الشهابي الكبير امير لبنان قد ارسل اليه من يرده الى الصواب ويحسه على الرضوخ للعزيز موجباً عدم نسيان المعروف ولكن الوالي الشاب اجاب : « انني اعرف شجاعة الامير فكيف اهملها الآن . فالدولة لم تسمح برفع الحصار عني الا بعد عجز عساكرها . وقد عجز بونايرته عن فتح عكة وكانت محصنة بسور واحد فكيف يقدر عليها العزيز وهي الان محصنة بسورين . وماذا يقدر محمد علي ان يصنع معي . هل هو اكثر من وزير فانا وزير مثله فليكن الامير شجاعاً كما اعهد» (١٥٤)

وكان ابراهيم باشا لا يزال في حيفا ينتظر وصول ابراهيم يكن باشا وعساكره اليها ويدبر ادارة البلاد المجاورة فعين الشيخ احمد عبد الحلیم « شيخ مشايخ » الساحل وألح على الشهابي الكبير بوجود حضوره الى الاوردو . فأجاب الامير بان سبب تأخره عن الحضور هو قطع دابر الفساد الذي كاد يدب بين الناس من جراء تواتر الاخبار بقدم المساكر المنصورة وجس النبض في جميع انحاء البلاد قبل القيام منها الى عكة . وطلب الامير اصدار مرسوم شريف بحضوره لغاية في نفسه يفصح عنها لدى وصوله شفاهاً . فأمر ابراهيم باشا باصدار هذا المرسوم .

(١٥٣) راجع رسالتنا عكة وحصونها في عهد ابراهيم باشا . وفيها تفاصيل وافية وام المراجع .

(١٥٤) الجواب على اقتراح الاحباب لميخائيل مشافه : نسخة جامعة بيروت الامبركية ص ١١٣

وفي هذه الفترة أيضاً كتب العزير الى الامير الشهابي يأسف على ما بلغه من انه لم يأت الى معونة ابراهيم باشا ويستنتج من ذلك انه انما يتنهي الانضمام اليه بعد الانتهاء من مسألة عكة . ثم ينبه الى ان هذا الامر لا يحتاج الى الكثير من الملاحظة وعميق التفكير . ثم يتوعد بانة اذا احجم بعد وصول هذا الكتاب اليه عن الانضمام الى ابراهيم باشا فانه مجرد عليه خمسة الايات او ستة تدك دياره دكاً وتقطع دابر الدروز قطعاً^(١٥٥) . والواقع ان الشهابي الكبير كان لا يزال مخلصاً كل الاخلاص للعزير اذ انه كان قد نصح عبدالله باشا بالوضوح للعزير و اشار على الشيخ حسين عبد الهادي بوجود ملاقاته المصريين والسير امامهم على عكة مضيئاً انه لدى وصولهم اليها ينزل هو ايضاً على عكة^(١٥٦) . وما ان تسلم المرسوم الذي طلبه من ابراهيم باشا حتى قام من قصره في بتدين على راس مئة فارس الى عكة . ولما اقبل على المسكر في التاسع من كلون الاول سنة ١٨٣١ التقاه الاي من الجند بالموسيقى واطلاق البارود ودخلوا به بموكب عظيم واتزلوه في خيمة قرب خيمة الوزير فالتقاء ابراهيم باشا احسن ملتقى وكتب الى والده يخبره بحضور الامير^(١٥٧) . ويرجوه ان ينعم على حفيده بسيف من ذهب او بزوج طبنجات مذهبة^(١٥٨) . ففعل العزير وقال في كتابه الى الامير : « انا عالم بملك ومحبتك وصدق خلوصيتك وما بقي للاعترار اثر . فيا امير انا اختيار وانت اختيار واعطاء احدنا الى احدنا شيئاً يكون غشاً من كون هكذا اشياء تليق بالشبان . فالان مرسلين الى ولدنا ولدكم الموجود معكم جوز طبنجات ذهب وسيف ذهب ان شاء الله تعالى عند وصولها واعطائها يتقاد بهم بالصحة »^(١٥٩) .

والفت القائد الاعلى في اثناء اقامته في حيفا الى استقضاء اخبار عدوه فبث جواسيسه في عكة واستمع الى اقوال غيرهم من اهل الحيرة . ومن هؤلاء الحواجه لويس كتفاكو والسينور بوزيو اللذان كانا قد استأذنا عبدالله باشا بالخروج من عكة لا يوا. عيالها في الناصرة ووعدا بالعودة ولكنها لم يفعلوا . وقد اكد الحواجه كتفاكو لابراهيم باشا ان اتباع عبدالله باشا يمتقونه وانهم يترقبون الفرصة للخلاص^(١٦٠) . ولكن شيئاً من هذا لم يتفق وواقع الحال

(١٥٥) المحفوظات الملكية المصرية ج ١ ص ١٣٥

(١٥٦) الجواب على اقتراح الاحباب لميخائيل مشاقه ص ٢٢٣

(١٥٧) اخبار الاعيان لطنوس الشدياق ص ٥٦٧-٥٦٨

(١٥٨) ابراهيم باشا الى محمد علي باشا ١٣ رجب سنة ١٢٤٧ (١٨٣١) : المحفوظات ج ١ ص ١٤٠

(١٥٩) محمد علي باشا الى الامير بشير الشهابي : الاصول العربية ج ١ ص ١٠٣-١٠٤

(١٦٠) يوحنا بحري الى الباشامون ١٦ و ١٥ جمادى الآخرة سنة ١٢٤٧ (١٨٣١) : المحفوظات ج ١

ص ١٢٩ .. اطلب ايضاً كادالنان وبارو ص ٦٨-٦٩

فان ابراهيم كتب الى والده عند بدء الحصار يقول : « ان احوال عبدالله باشا واعماله تدل في الغالب على الطيش وقلة التبصر والجنون الا ان عمله في هذه المسألة يدل على مهارة وحذق عظيمين . فانه اخرج عساكره بحيث لا يتجرأ احد منهم ان يكتشف زميله بما يعلم او يعتقد وبالتالي فانه ليس لدينا لاستمالة هؤلاء . سوى اظهار قوتكم القاهرة وعظمتكم الباهرة^(١٦١) . وكان العزيز في هذه الفترة يُلحُّ على ابنه بوجوب استنواء كبار الرجال في عكة بالمال فيقول ان الحكومات تستولي تارة بقوة السواعد وتارة اخرى بقوة النقود فيجيب قائد الجيش انه لم يسمع قط ان الحكومات افتتحت القلاع بالنقود^(١٦٢) . وحاول العزيز نفسه ان يطمئن جنود عبدالله باشا باستعداده لدفع جماكيتهم وان يستميل قادتهم بالمال والامان ولكن دون جدوى^(١٦٣) .

وبعد ان وصل ابراهيم يكن باشا بمعظم الرجال الى حيفا وتم ائزال المتصاد اليها امر القائد الاعلى بالزحف على عكة . ولدى وصوله الى سهلها جعل البهجة مقرأله وركز ميمنته بين البهجة والبحر وميسرته بين البهجة ونهر النعين . ثم أمر بجفر الخنادق بالقرب من عكة نفسها^(١٦٤) - خنادق الغار بلغة ذلك العصر . وفي الثامن من كانون الاول بدأ قصف القلعة من البر والبحر مما فأطلق الاسطول المصري وحده ما بين التاسعة صباحاً والرابعة بعد الظهر ستين الف طلقة^(١٦٥) فتهدم السور البحري في عدة نقاط وتزعزع عدد كبير من البيوت في القسم الغربي من البلدة . وأدى القصف من البر الى نتيجة مماثلة فتشلم السور الخارجي وظهر خلله في نقاط كثيرة ولكن الجيش لم يتمكن من تسليق الاسوار في النقاط المثلة نظراً لعدم توفر الاكياس والسلال والاعشاب لديه . وتكرر قصف عكة في الشهر نفسه ولكن دون جدوى للاسباب نفسها ولكثرة تماطل المطر الذي اوقف القصف مراراً وافسح المجال لبدائه باشا ورجاله ان يصلحوا ما خربته المدافع . وهبّ العزيز يتلافى ما لمسه من نقص فطلب مهندسين عسكريين من ايطالية وفرنسه .

(١٦١) ابراهيم باشا الى محمد علي باشا ٣ رجب سنة ١٢٤٧ (١٨٣١) : المحفوظات ج ١ ص ١٢٧

(١٦٢) الرسالة نفسها .

(١٦٣) محمد علي باشا الى اسد بك طوقان ١٩ جمادى الاخرة سنة ١٢٤٧ (١٨٣١) : المحفوظات ج ١

ص ١٣١ : يرسل اليه كتاب الامان لاختيه مصطفى بك الذي كان داخل عكة ورئيس المدفعية فيها .

(١٦٤) كادالغان وبارو ص ٧٣-٧٥ وصل ابراهيم يكن باشا الى حيفا في ٢٥ جمادى الاخرة (٢٧

تشرين الثاني) - المحفوظات ج ١ ص ١٢٢

(١٦٥) تاريخ حروب محمد علي وابنه البحرية للاميرال دورانيل ج ٢ ص ٦٤-٦٤

ووصل في هذه الاثناء مصطفى نظيف افندي واحمد توفيق بك من وكلاء رؤساء الاقلام في الصدارة العظمى الى الاسكندرية للتحقيق في الدعوى القائمة بين العزيز وبين عبده باشا كما اشرفنا الى ذلك سابقاً وأشار مصطفى نظيف افندي الى امكانية احالة ايالة صيدا الى عمدة العزيز فكذب هذا الى ابنه يحتم عليه الاسراع في الاستيلاء على عكة وبلغت نظره الى ان الحرب خدعة وانه من المستحسن ان يستدعي كتحدا عبده باشا اليه ويطلعه على ما مورية نظيف افندي ثم يتركه مع الشهابي الكبير لعله يقنعه بزخرف الكلام^(١٦٦). فأقام ابراهيم باشا معالم الزينة في معسكر الجيش وارسل رئيس سعاة البريد الى عكة يبلغ الحاق ايالة صيدا بمصر واسنادها الى العزيز ويدعو كتحدا عبده باشا اليه . فوصل رئيس السعاة الى السور وبلغ رسالته وبعد ان حجز نحو ثلاث ساعات تحت السور خرج الكتحدا مع بعض اتباعه. وبعد وصوله الى المعسكر ارتاح برهة في خيمة الامير بشير الشهابي ثم دخل والامير الى خيمة القائد العام وقال اخوكم الباشا يهدي اليكم سلامه ويدعو اكم بالحير . فأجابه ابراهيم باشا سلمه الله ثم قال لقد أُلحقت ايالة صيدا بمصر ووجهت الى مولانا وهو يسامح في ما مضى والباشا من ابنا. مولانا فاذا فليخرج من عكة وليتفضل الى مصر او ليكن معي في الخدمة هنا فنعمل معاً . ثم أضاف ابراهيم باشا قائلاً نحن زيد منك ان تسمى لاتمام هذا الامر لاننا جميعاً مسلمون اخوان في الدين وأنت ذهبت الى مصر وكنت احد اتباع مولانا الذين أجهم وانا ايضاً احببتك لذلك . فلما سمع الكتحدا هذا الكلام قال : اني سانقل هذا كله وربما زدت عليه ولكن ليس في يدي من الامر شي. والامير بشير يعرف ذلك . فقال الشهابي : حسن ولكن لم يبقَ ما يُقال وعلامت النهاية ظهرت في الميدان . فأجاب الكتحدا مبالغ الباشا أصبحت في يد السرعسكر خورشيد الملوك الذي عينه الباشا حديثاً . ثم استأذن في الذهاب فأرسل معه رئيس السعاة . وبعد ان اعاقوا رئيس السعاة ساعتين خرج اليه ما يسمونه السرعسكر وهو صبي دون السابعة عشرة واسمه خورشيد مع اميرالاي النظام واربعين من عساكر النظام وقالوا لرئيس السعاة ان جواب الباشا هو هكذا : سلم على اخي الباشا وقل له نحن لا نصدق الكلام فاذا كانت الدولة قد أُلحقت ايالة صيدا بمصر فليرسلوا لنا الاوامر لثاها ونحن نرسل الجواب بمقتضاها . نحن لم نحارب بعضنا بعد والامر لا ينتهي بحصار عكة اربعين او خمسين يوماً وبسقوط كم حجر منها فلنحمل على بعضنا بالسيف والخنجر وعندئذ نتفاهم . ويقول ابراهيم باشا في تقريره هذا ان باش جاويز عبده باشا الذي خرج

مع الكتحدا قال لرجال الامير بشير الشهابي انه قُتل من جنود عبدالله باشا حوالي سبع مئة . ثم يقول ان الامير المذكور يقدر عساكر عكة بالفين وسبع مئة او الفين وثمان مئة^(١٦٧).

ووافق اعمال الحصار هذه قحط وغلاء فاضطر القائد الاعلى ان يستقدم مؤونة جيشه من مصر بدلاً من ابتياعها في الاسواق المحلية وان يستقدم كميات اخرى لتسوين الاهالي . وهكذا فاننا نراه يكتب الى والده في السابع والعشرين من رجب سنة ١٢٤٧ يصف القحط في البلاد ويرجو شحن كميات كبيرة من البقساد والقمح والدقيق والذرة والفول والشعير والعدس والارز تكفي لمدة بضعة اشهر . وبعد ذلك ييومين يرجو ارسال كمية كبيرة من الذرة ليبيعها في ثغور الشام . وزى العزيز في الوقت نفسه يكتب الى متسلم القدس فيحيطه علماً بالقحط فيها ويأسف ان الحنطة قليلة في مصر ولكنه ينبهه بان امر بارسال الف اردب من الارز لتباع بسم السرق^(١٦٨).

لمس ابراهيم نواقص جيشه وأحاط علماً بجميع هذه الصعوبات فرأى ان يقرئث قليلاً في امر المهجوم على عكة وان يكتبني الى أمد معين بتشديد الحصار عليها لينع وصول المدد اليها . فشاور الشهابي الكبير وقر قرارهما ان يُصار الى احتلال جميع الثغور الشامية لمنع المدد . وطلب الى مصطفى اغا بربران يقوم من عكة باورطة من المشاة فيضع بلوكاً منها في صور واخر في صيدا واثنين في بيروت ويتوجه بالاربعة الباقية الى طرابلس ثم يكتب منها الى مصطفى اغا هارون في اللاذقية فان قبل وامتلل كان به والا فيرسل مصطفى اغا بربران متسلماً من قبله اليها^(١٦٩).

وكانت الدولة العثمانية قد احتاطت في امرها فصنت محمد باشا والي الرقة وقائمقام حلب سابقاً والياً على حلب « وسردار سواحل بلاد العرب » وألحقت به كلاً من علوش باشا وعثمان باشا امين المعادن وعثمان خيرى باشا متصرف قيصرية . وأمرت محمد باشا والي سلستره ان يسير بمساکر الروملي الى الاناضول كما اخرجت خمسين الفاً من « نخبة المساکر المدربين » من ناحيتي كيفه لق وطوسقه لق من بلاد الارناؤوط . وعينت عثمان باشا قائمقام الشام سابقاً والياً

(١٦٧) ابراهيم باشا الى محمد علي باشا ١٠ شعبان سنة ١٢٤٧ (١٨٣٢) : المحفوظات نفسها ج ١ ص ١٦٧-١٧٠

(١٦٨) المحفوظات ايضاً ج ١ ص ١٥٩ و ١٦١ و ١٦٢

(١٦٩) يوحنا مجري الى الباشماون ١٣ رجب سنة ١٢٤٧ (١٨٣١) : المحفوظات ج ١ ص ١٤١

على طرابلس لايجاد قوة عسكرية كافية في هذه البلدة وتسهيل اعمال الجردة واعداد الصدة لتأمين القيام بفريضة الحج^(١٧٠).

وما ان وصل عثمان باشا والي طرابلس الجديد الى حلب واتصل بمحمد باشا سردار سواحل بلاد العرب حتى حرر كل منها الى الشهابي الكبير امير لبنان يدحانه ويستميلانه الى جانب الدولة . ويتضح من اسلوب عثمان باشا وطريقته في الكتابة انه كان يعلق اماًلاً كبيرة فياً اذا نجح في استمالة الامير . فهو يستهل احدى رسائله الى الامير اللبناني بالبارات التالية : « صاحب الطرفة والسعادة والمروءة والرافة اخي حميد المزايا سلطاني واميري الكريم » . ويقول في محل اخر : « اني وان كنت لم اتشرف بمقابلتكم لان فاني نظراً لوجودي مدة سبع سنوات بالشام وبلاد العرب وكنت اجتمع بعد القادر اغا واحمد آغا ترجمانكم بالشام فنذكركم بالذكر الجميل والسيرة الحسنة ولهذا السبب لم آلو جهداً ولم اوخر وسماً في الاطراء بكم والثناء عليكم بالصدق والامانة والدراية والفظانة واخلاصكم الشديد للدولة العلية كما برهنتم على ذلك في مواقع كثيرة وانكم لا تريدون قط الانفصال عن الدولة بحال من الاحوال ولا ترمون الى ذلك ابداً وقد ذكرت كل هذا للحكومة العثمانية ولاسيا لتايقام السرعسكر ولدولة السرعسكر خسرو باشا محمد . واني واعدك بان اتوم بجميع متمساتكم كلما وجدت لدى الحكومة العثمانية^(١٧١) . وكتب محمد باشا والي حلب وسردار سواحل بلاد العرب في هذه الآونة نفسها الى ابراهيم باشا يرجوه ان يتخلى عن منسليه طرابلس وان يستدعي مصطفى اغا بربر منماً لوقوع الفتنة بينه وبين عثمان باشا وتسيلاً لسفر الحمل الشامي^(١٧٢) .

وكان العزير يري في تعيين عثمان باشا والياً على طرابلس مجرد جس نبض فقط فكتب لابنه ابراهيم « بوجوب طرد كل شخص ياتي الى الايالات التي وقعت بيده » وتيقن في الوقت نفسه من ورود الفرمانات السلطانية باحالة الايالات الجديدة الى عهده^(١٧٣) . وهكذا فاننا نرى ابراهيم يمتد مجلساً استشارياً مؤلفاً من الامير الشهابي الكبير والمطم يوحنا مجري وعثمان بك لدرس الموقف فيقر قرارهم على تشكيل جيش من المشاة والحياة والمدفعين وارسالهم

(١٧٠) علي نجيب افندي الى عدهائه باشا ١٥ رجب سنة ١٣٤٧ (١٨٣١) : المحفوظات ايضاً ج ١ ص ١٤٥-١٤٧ . راجع ايضاً الفرمان السلطاني الى والي طرابلس هذا في المجلد نفسه ص ١٤٧-١٥٠

(١٧١) الاصل نفسه : المحفوظات الملكية المصرية ج ١ ص ١٩١-١٩٤

(١٧٢) ٢٣ شبان سنة ١٣٤٧ (١٨٣٢) : المحفوظات ايضاً ج ١ ص ١٨١-١٨٢

(١٧٣) المحفوظات ايضاً ج ١ ص ١٧١

الى مرج ابن عامر لايقاع الرعب في قلوب المعارضين في جبال نابلس والقدس وعلى قيام هذا الجيش نفسه بعد بضعة ايام من وصوله الى المرج المذكور - على قيامه الى جسر بنات يعقوب الحد الفاصل بين ايالتي دمشق وصيدا فرجصيون . وتقرر في الجلسة نفسها ارسال الامير خليل الشهابي نجل الامير بشير على راس الف مقاتل لبناني الى طرابلس وارسال خمسة بلوكت من مشاة الجيش اليها بالاضافة الى الاورطة الموجودة فيها وتعزيز البلوكتين الموجودتين في بيروت ببلوكتين اخريين وانه بعد ذلك اذا زحف احد من حلب على طرابلس يقوم ابراهيم باشا بنفسه لمجابهته بجيش خاص واذا أعلنت الدولة الحرب يزحف اللبنانيون بقيادة الامير امين الشهابي نجل الامير بشير على دمشق . ويبقى الشهابي الكبير في المسكر العام يدير مصالح البلاد الادارية ويحتم ما يلزم من الاوراق والاوامر بنجتم ابراهيم باشا وذلك نظراً لاحاطته التامة باحوال بر الشام وفهمه الكامل لحركات سكان هذا القطر وسكنتهم . ورأى ابراهيم ايضاً ان يعين من رجاله الاخصاء حكاماً على القدس ونابلس وبيروت وغيرها من المراكز الهامة^(١٧٤) . وكتب الامير بشير الى نجله الامير خليل يستدعيه اليه فقام الى عكة وتفهم مهمته وعاد الى الشريقات حيث تجمعت الرجال واكثرهم من النكديين والتلاحقة والملكيين والحوازنة والحبيشيين فسار بهم الى طرابلس^(١٧٥) . وكان قد سبقه اليها ادريس بك قائد الالاي الثامن عشر فاصبحت حامية طرابلس ثلاثة الاف رجل نصفها مصري والنصف الآخر لبناني^(١٧٦) .

وكان عثمان باشا قد قام من حلب على راس بضعة الاف مقاتل غير نظامي واتجه بهم الى اللاذقية . ولدى وصوله اليها ارسل كتخداه الى عكار ونواحيها ليكرز باسمه وباسم السلطان فيعد الطريق له قبل وصوله^(١٧٧) . ثم تقدم الباشا نحو طرابلس مركز اياته واستقر

(١٧٤) ابراهيم باشا الى محمد علي باشا ١٩ شعبان سنة ١٢٤٧ (١٨٣٢) : المحفوظات ج ١ ص ١٧٢ -

١٧٧ وفي اخبار الاعيان لطروس الشدياق : « وفيها كتب العزيز الى ابنه ان يفوض الى

الامير معاطة احكام اباله صيدا وان يكون نصريف جميع المسلمين ورجال المقاطعات من

يده - ص ٥٦٨

(١٧٥) اخبار الاعيان ايضاً ص ٥٦٩

(١٧٦) كادالفان وبارو ص ١٠٦ . راجع المحفوظات ج ١ ص ٢٣١ وفيها ان مجموع الحامية ستة

الف .

(١٧٧) كتاب مصطفى اغا بربر الى يوحنا مجري ١٣ رمضان سنة ١٢٤٧ (١٨٣٢) : المحفوظات ج ١

ص ١٩٨ - ٢٠٠

في قرية المنية ووجه منها خطاباً الى حامية طرابلس ذكرهم فيه بانهم من رعايا السلطان وطلب اليهم ان يتقادوا لاوامره وكتب بثل هذا الى مصطفى اغا بربر^(١٧٨). ثم نهض الى طرابلس فوصلت طلّاع جيشه الى ابوابها. وما ان فلتت حتى خرج اليها اديس بك باورطة من الايالي الثامن عشر فرد هذه الطلّاع على اعقابها ولحق بها الى السهل خارج المدينة والى شمالها الشرقي فكثرت عليه كره مفاجئة اسفرت عن تتهقره وضياح قسم كبير من وحداته المقاتلة. وعندئذ تجرأ عثمان باشا وتقوى قلبه فهاجم طرابلس بقواته في الحادي والثلاثين من اذار فخرج لقتاله اللبنانيون بقيادة اميرهم خليل الشهابي فكسروا الحياطة في السهل وقتلوا الارناؤوط من التل وجدوا في اثرهم حتى بلغوا البداوى ثم عادوا ظافرين^(١٧٩). وكان الامير خليل قد لمس عطفاً من رجال الدين في طرابلس واعوانهم على عثمان باشا وما فحق ان يتقن من ذلك عندما وقمت رسالة من عثمان باشا اليهم في يد مصطفى اغا بربر تبين منها انهم فاضوه بتسليم المدينة اليه. فاتفق ومصطفى اغا بربر على اعتقال القاضي والمفتي وبعض الاعيان ووضعهم في القلعة وكتب الى والده يجهده بذلك كله^(١٨٠). فنهض ابراهيم باشا على رأس قوة مؤلفة من عشرة الاف مقاتل منها الايالي القارديا والايالي الحياطة السابع وستة مدافع فوصل الى البترون في السابع من نيسان سنة ١٨٣٢ (٥ ذي القعدة سنة ١٢٤٧) وبات فيها تلك الليلة. وما ان تحقق عثمان باشا من وصول خصمه الى البترون حتى استولى عليه الذعر وترك خيامه وجرحاه ومقداراً من الذخائر والحيخانه وفرّ شمالاً. وتولت اخبار هذا الفرار في خيمة الامير بشير الشهابي في معسكر عكة وكان بين المستمعين الشيخ حسين عبد الهادي والشيخ احمد عبد الحليم والشيخ محمد طاهر الحسيني مفتي القدس فدعوا جميعهم بالنصر «وقرأ المفتي الحديث لمنة الله على السلطان الضيف»^(١٨١). ثم أرسل ابراهيم باشا الامير عبدالله الشهابي الى المنية ليضبط مخلصات عثمان باشا وجدّ هو في اثره الى حمص. ولدى وصوله اليها تقبل طاعة اهلها وعلم ان طلّاع الجيش السلطاني كانت قد وصلت الى حماء. فصمم على ضربها ضربة حاسمة ولكنه عاد فأثر التراجع الى بعلبك ليكون اقرب الى نقطة الترمين التي كان قد انشأها في زحلة واقام على حراستها فرقة من اللبنانيين بقيادة الامير قاسم الشهابي

(١٧٨) المحفوظات ج ١ ص ٢٤٨ و ٢٥٢-٢٥٣

(١٧٩) اخبار الاعيان ص ٥٧٠

(١٨٠) اخبار الاعيان ايضاً ص ٥٦٩-٥٧٠ راجع ايضاً لبنان في عهد الامراء الشهابيين ج ٣ ص ٨٤٠

٨٤٢- والمحفوظات ج ١ ص ٢٠٣-٢٠٤

(١٨١) يوحنا بجري الى الباشماون ٨ ذي القعدة سنة ١٢٤٧ : المحفوظات ج ١ ص ٢٥٢

فجلب الأمير بشير . وما ان وصل خبرُ هذا التراجع الى الباشاوات في منتصف الطريق بين حمص وبين حماه حتى جدوا في اثره فلحقوا به في سهل الزراعة بالقرب من قرية القصير . فدير ابراهيم خطته وجعل بينه وبين اخضامه ترعة ماء ثم شطر خيائه شطرين وركر خلف كل منها مدفعية كافية وأوهم خصمه انه سيلزم خطة الدفاع . فانخدع الباشاوات وهجموا بكل ما لديهم . فلبثت الحياطة المصرية صامته حتى اذا اصبح الحُصم على مسافة معلومة ارتدت عليه بسرعة عجيبة والتفت حوله وعندئذ بدأت المدافع المصرية تقذف نيرانها فاصطادت الحياطة عساكر الباشاوات صيداً وقتلت منهم ما يقرب من الثلاث مئة فارتدوا على اعقابهم خائبين^(١٨٢) .

وظنت اوساط المعارضة في لبنان ان دورها قد اتى فأصفت الى اغراء محمد باشا والي حلب والى صوت بعض من التجأ اليه من زعمائها كاولاد الشيخ بشير جنبلاط والشيخ اسعد النكدي^(١٨٢) ووقعت من جراء ذلك مشادة بين بعض الدرروز وبين بعض النصاري في دير القمر وفي المتن وفي زحلة . فكتب الشهابي الكبير الى هؤلاء . يتهددهم ورأى ان يستغل وجود ابراهيم باشا وجيشه في البقاع فقام من عكة الى بتدين وارسل عوضاً عنه الاميرين ملحم حيدر وفاغور قعدان الشهابيين ثم قام مع ابراهيم باشا على راس قوة مصرية الى ديرالقرم واتزلها في دور النكديين فوق وقع الرعب في قلوب المعارضين وجاؤوا الى بتدين مستسلمين طائعين^(١٨٤) . وبعد ان قام ابراهيم باشا من بتدين الى زحلة كتب الى الشهابي الكبير ان يرسل بعض وجوه المعارضة الى المسكر في عكة فأرسل الامير من اللعين الامير سعدالدين مراد والامير بشير قايدبيه . ثم ارسل الامير امين ارسلان والشيخ حسين تلحوق والشيخ يوسف عبد الملك . وأمر الوزير ايضاً بتداهمة الامير بشير الشهابي الصغير والامير سلمان سيد احمد والامير حسن اسعد الشهابيين لانه بلغه انهم سينهضون لملاقاة عساكر السلطان^(١٨٥) . ولكن هذا كله لم يمنع عدداً من النكديين ورجالهم من الفرار الى حمص ومعهم الشيخ

(١٨٢) الاصول العربية : ابراهيم باشا الى الامير قاسم الشهابي ج ١ ص ١٢٠ راجع ايضاً المحفوظات

الملكية المصرية تقرير يوحنا مجري الى الباشماون ج ١ ص ٢٧٠-٢٧٣

(١٨٣) راجع بعض رسائل هؤلاء الى النكديين وبيت الاعور وبي هلال في المحفوظات الملكية ايضاً

ج ١ ص ٢٥٧-٢٦٠

(١٨٤) اخبار الاعيان لطنوس الشدياق ص ٥٧١ راجع ايضاً كتابنا مخطوطة القس انطون الحلبي ج ١

ص ١٣ و ١٥ . اطلب ايضاً المحفوظات الملكية المصرية ج ١ ص ٢٨٤ و ٢٨٦

(١٨٥) تجد تفاصيل هذا كله في اخبار الاعيان ايضاً ص ٥٧٢-٥٧٣

محمد القاضي الشهيد ومن المحاربة مع الجنبلاطين والمهاديين هناك الى جانب الدولة . فأمر ابراهيم باشا بهدم دور الذين توجهوا الى حمص فنُفذ أمره في كل من دور القمر وكفرنبرخ والمختاره^(١٨٦) .

وبعد ان أمن شرّ المعارضة في لبنان على هذا الشكل قام القائد المصري الى بعلبك ينظم حاميتها ليلهي بها الدمانيين عن عكة . وبعلبك كما لا يخفى تهدد بموقفها المتوسط كلاً من دمشق وحمص وطرابلس وبيروت وتسيطر في الوقت نفسه على طريق عسكري شهير يصل شمالي سوريا بجنوبيها ويضيق جداً عند بعلبك نظراً لاقتراب السلسلتين اللبنايتين بعضها من بعض . وكان ابراهيم باشا قد أمر ابن اخيه عباس باشا ان يأتي الى بعلبك على راس الالاي الثاني عشر من المشاة والاي الحياالة الثالث وبطاريات ثلاث ففعل وأصبح لدى ابراهيم في تلك البرهة في بعلبك اربعة الايات من المشاة والايان من الحياالة ومدفعية كافية^(١٨٧) .

وكان السلطان قد أصدر «التوجيهات» السنوية بمناسبة عيد رمضان واستهلها بارجاء تعيين حكام مصر والحجاز وكريت الى ان يكون محمد علي باشا وابنه ابراهيم باشا قد رجعا عن الخطأ الذي ارتكباه . وتوقع ان يكون في ذلك ما يكفي لدخولها في الطاعة . ولكن العزيز وابنه ثابرا في خطتها وتبعاً اعمال الحصار في عكة مصرين على موقفها مؤكدين انها انما يرميان بذلك الى رفع بلية عكة وان الاوفق ان تعود القوات المحتشدة في حمص الى حلب اذ لا بد من صدور العفو السلطاني^(١٨٨) . ثم كان ما كان في الزرعة فأصدر السلطان فرماناً همايونياً الى حسين باشا «السرदार الاكرم» ببن فيه خروج محمد علي باشا عن الطاعة وأوجب قصاصه وصدرت الفتوى بهذا من جانب شيخ الاسلام مذيلة بامضاءات اربعين عالماً من علماء الآستانه^(١٨٩) . وأعلم السلطان الدول بخرج محمد علي باشا عليه وبزله من منصبه وتجريد

(١٨٦) المرجع قسه . ويرى المؤرخان الافرنسيان المعاصران كادلانان وبارو ان الامير خليلاً ابن الشهابي الكبير كان يقوي هذه المعارضة ويقول قولها لان والده كان قد قدم اخاه اميناً عليه فسله مقاليد الامور في اثناء غيابه في عكة . ولكننا لم نقف حتى هذه الساعة على اي مصدر آخر يقول هذا القول ولا نرى في سلوك خليل ما يؤيد مثل هذا الاستنتاج . راجع كتابها المشار اليه آنفاً ص ١٢٥

(١٨٧) كادلانان وبارو ص ١٠٨-١٠٩

(١٨٨) محمد علي باشا الى الباشاوات في حمص ١٢ ذي القعدة سنة ١٢٤٧ (١٨٣٢) لم يرسل . اطلب المحفوظات ج ١ ص ٢٦١

(١٨٩) كادلانان وبارو ص ١١٤-١٢٣

حملة لتأديبه وبفرض حصار مجري على مصر وتوابعها وطلب اليها ان تحافظ على الحياد التام فتمتنع عن امداد الباشا بالمؤن والذخائر والعتاد^(١١٠). فهب الكونت متزينخ وهو المحافظ على كل قديم وعلى الحقوق الموروثة هب يُعلم العزيز باستيائه وارسل مركبين حربيين الى مياه الشام ومصر يرقبان الامور وينقلان اخبارها الى حكومة الآستانة^(١١١). وأظهرت حكومة القيصر الروسي ارتياحها لبيان السلطان ولم تحف موقفها عن العزيز. اما حكومة انكلترة وحكومة فونسة فانها لم تظهرا اي عداة للعزيز^(١١٢). وقابل العزيز هذه الفتوى السلطانية بنفيها من نوعها صدرت عن شريف مكة المكرمة محمد بن عون وقضت بخروج السلطان عن قواعد الدين الحنيف^(١١٣).

وكان العزيز منذ اخفاق رجاله في هجومهم الاول على عكة في شهر كانون الاول يُبلعُ بوجود اعادة الكرة وتذليل هذه العقبة كي لا تُجرَح مضيواته وتنقص سطوته فتنفجر حرب اهلية لا تُحمد عقباها. ولذا فاننا نراه يستدعي اعضاء ديوانه العالي في اوائل شهر شباط الى جلسة فوق العادة لاستماع تقرير رفته اليه عثمان نور الدين بك ولدس الموقف على ضوء هذا التقرير. وما ان فعل حتى حرد لابنه ابراهيم موجباً اقتحام عكة وانهاء قضيتها. فقام قائد الجيش في عيد رمضان في الرابع من اذار يصلي عكة ناراً حامية دامت اسبوعاً كاملاً. فزاد الاسوار خراباً ووسع تغراتها وخطب في رجاله مبيناً ثواب عملهم ومشيراً الى ما جمع عدوه من اموال ستصبح حتماً مالاً حلالاً لهم. وعند الفجر هب الرجال الى الثغرة في برج الباب فتسلقوا السور الخارجي وغنموا مدفين ثم تدفقوا الى الحندق الداخلي فتسوروا السور بعده ونفذوا منه الى قلب البلدة مكرهين ارنائوط عبداه الى الاحتماء في ابراج السور البحري. ثم اطلقت عليهم النار فجأة من نوافذ المنازل المجاورة وتفجر البارود تحت اقدامهم فهاشم الموقف وانتثر عقدهم فانسحبوا الى حيث اتوا تراكين وراهم منتي قتييل وجريح.

(١٩٠) البارون دي فارين الى وزير الخارجية في ١١ ايار سنة ١٨٣٣ : الحرب الشامية الاولى لجورج

دوان ج ١ ص ١٨٣-١٨٩

(١٩١) ميسو الى ساستياني في ٢٩ ايار سنة ١٨٣٣ : المؤلف نفسه ج ١ ص ١٩٩-٢٠٠

(١٩٢) المؤلف نفسه ايضاً ج ١ ص ١٨٣-١٨٥ و ٢٠٠-٢٠٢ راجع كذلك كادلان وبارو ص ١٢٤

- ابراهيم يكن باشا الى محمد علي باشا ٥ ذي الحجة سنة ١٢٩٧ (١٨٣٣) : المحفوظات ج ١

ص ٢٩٠ اطلب ايضاً تقرير لافيزون قنصل روسية الى بونيفيف ١٨ حزيران سنة ١٨٣٣ :

محمد علي والمحفوظات الروسية لربنه قطاوي ج ١ ص ٥٠٨-٥١٠

(١٩٣) كادلان وبارو ص ١٠٣

ولكنهم زادوا بملهم هذا خبرة وازدادوا ثقة وشجاعة^(١١٤).

ثم قام ابراهيم الى طرابلس فحصد فالزراعة فبعلبك فرحلة فبتدين كما سبق فواضعنا ولم يبق امام اسوار عكة سوى عشرة الاف مقاتل بقيادة ابراهيم الصغير - ابراهيم يكن باشا - ولكن اعمال القصف لم تنقطع فانفتحت ثغرتان جديدتان في السور الشرقي وتهدم او احترق قسم كبير من البلدة واضطر عبدالله باشا ان يهجر قصره ويختبئ مذعوراً في سردايب برج الحزنة خوفاً من رجاله^(١١٥).

وكان ابراهيم باشا لا يزال في لبنان ينتظر قدوم عساكر السلطان الى بعلبك^(١١٦). ويري انه على اتم الاستعداد لمجابهتهم ولاسيما وانه قد انهى فتنة جبل الدروز وجيشه المرابط في زحلة يوازي اضعاف قوة العدو في حمص. وبالتالي « فلا مجال للتشاؤم وزحلة تبعد مرحلتين عن بعلبك بالسير السريع والبريد بين حمص وبعلبك وزحلة وعكة منتظم كل الانتظام^(١١٧) ». وكان العزيز يشارك ابنه في رأيه هذا فيهزأ من اقوال رجال الآستانه ويسخر من تبجحهم بجيشهم واستعداداتهم فيشير الى اندحارهم في حمص والى تصيين حسين باشا نفسه سرداراً اكرم^(١١٨). ولكنه كان قد بدأ يشعر باهتمام الدول بقضيته وباحتمال تدخلهم بعد سقوط عكة فأوجب انهاء مسألتها عن يد السرعسكر نفسه ولاسيما فتنة الدروز كانت قد اخمدت بفضل بسائه^(١١٩).

وعاد ابراهيم الى عكة في اواخر الثلث الثاني من شهر ايار سنة ١٨٣٢ فعاين اعمال الحصار بنفسه وأمر باتخاذ التدابير اللازمة وكتب الى والده بان نقل الذخائر والمهمات سيتم في زها. يومين فيبدأ عندئذ باطلاق النيران على القلعة^(١٢٠). وكان ابراهيم يكن باشا قد اتصل بالسلطات في عكة للمفاوضة قبل وصول السرعسكر بأسرع فرفضت هذه ارسال من يفاوض

(١٩٤) كادالغان وبارو ص ٩٣-٩٥

(١٩٥) المؤلف نفسه ص ١٢٧-١٢٨

(١٩٦) محمد علي باشا الى ابراهيم باشا ١٢ ذي الحجة سنة ١٢٤٧ (١٨٣٢) : المحفوظات ج ١ ص ٢٩٧

(١٩٧) ابراهيم باشا الى محمد علي باشا ١٨ ذي الحجة سنة ١٢٤٧ (١٨٣٢) : المحفوظات ج ١ ص ٣٠٢

(١٩٨) محمد علي باشا الى ابراهيم باشا ٢٨ ذي القعدة سنة ١٢٤٧ (١٨٣٢) : المحفوظات ايضاً ج ١

ص ٢٨٥

(١٩٩) محمد علي باشا الى ابراهيم باشا ٦ ذي الحجة سنة ١٢٤٧ (١٨٣٢) : المحفوظات نفسها ج ١

ص ٢٩١

(٢٠٠) ابراهيم باشا الى محمد علي باشا ١٩ ذي الحجة سنة ١٢٤٧ (١٨٣٢) : المحفوظات ج ١ ص ٣٠٤

من قبلها وقالت من يريد ان يفاوضنا بشيء فليأتِ الينا الى القلعة^(٢٠١) . فأمر ابراهيم باشا باعادة الكرة عملاً بتوصية والده فارسل تاتاره الى عكة يحمل انذاراً اخيراً . ولكن عبداًه باشا رفض قائلًا لم يمضِ على الحصار سوى بضعة اشهر وبامكاننا ان نتابع الدفاع بضعة سنين فلنتظر خمس سنوات اخرى فأمر ابراهيم بقصف القلعة طيلة ذلك الليل وبينما كانت المدافع تطلق نيرانها قام المهندسون المسكويون بحفر الخنادق قرب الاسوار وبنصب المدافع اللازمة ونقل السلام وما الى ذلك . وفي صباح اليوم التالي - ٢٧ ايار ١٨٣٢ - بدأ هجوم عام فقامت كتيبة من الاي المشاة الثاني الى الثغرة في برج الباب وكتيبة ثانية من الاي نفسه الى ثغرة في برج النبي صالح وثالثة من الاي نفسه ايضا الى ثغرة برج الزاوية وقامت كتيبة من الاي المشاة العاشر الى برج كريم لتسلك جدرانها . وأبقى ابراهيم كتيبتين من الاي الحامس والعاشر تحت تصرفه ليدفع بها الى برج الزاوية عند اللزوم ووضع تحت تصرف ابراهيم يكن باشا الكتيبة الرابعة من الاي المشاة الثاني لتدعم الهجوم على برج الباب . ورأى ابراهيم ان يلهي خصه في اقصى مسيرته في برج كريم أولاً فيضربه ضربة قاصمة في القلب في برج الزاوية وقامت كتيبة الاي المشاة العاشر لتسلك جدران برج كريم فاصلتها الحامية ناراً حامية ادت الى اصابات كثيرة غير منتظرة . ولكن كتاب الاي الثاني نجحوا في مهمتهم بادئ ذي بدء . في برج الباب وبرج النبي صالح وما ان فتلوا حتى هب ابراهيم بجنوده الى برج الزاوية فركز قوته فيه . وعندئذ تحولت نيران بعض مدافع السور الخارجي فبدأت تنصب على استحكامات السور الداخلي وبرج الخزانة والبلدة . وعندئذ برز عبداًه باشا نفسه الى الميدان وبدأ هجوماً ماركساً مستهدفاً قوات خصه في برج الزاوية بصورة خاصة فصادف بعض النجاح ولكن خسائره في الرجال اضطرته الى التراجع الى السور الداخلي . وعند الخامسة مساءً نجح ابراهيم نفسه على راس كتيبة من الاي العاشر في تسلق السور الخارجي بين برج الباب وبين « مدورة الانكليز » في اقصى ميسنة خصه واستقر في خان الجنائن . وكان السر عسكر في اثنا هذا كله في طليعة جنوده يشرف على تسور الاسوار بمنشقا حسامه مشجعاً جنوده بشجاعته فكان لوجوده اشد الاثر في ضراوة القتال .

وما ان بدأ الليل يسدل ستاره حتى خرج اعيان البلدة يلتمسون الرحمة . وبعد قليل خرج وفد آخر مؤلف من مفتي البلدة وامام واليها وبعض رؤساء المدفعية يطلبون الامان للباشا وللحامية . فأمن رجال الحامية على نفوسهم واولهاتهم وبلغ منه ان سمح لهم بان يحتفظوا

(٢٠١) ابراهيم يكن باشا الى محمد علي باشا ١٠ ذي الحجة من السنة نفسها: المحفوظات ج ١ ص ٢٩٥

بسلحهم ولكنه لم يسمح لبعده الله باشا باكثر من تامينه على حياته . وعند منتصف الليل خرج بعده الله باشا من سراديب برج الحُرنة يرافقه كتخداه خورشيد بك ويتقدمها اللواء المصري سليم بك الذي كان قد اوفد خصيصاً لهذه الغاية . فاستقبله السرعسكر بما لاق بمقامه الوزيري وطلب اليه ان يقدم حساب خزنه وان يسلم امواله . فاعتذر مؤكداً ان صندوقه اضحى فارغاً بعد حصار طويل كثرت فيه مطالب الجند ولاسيما وان كلاً منهم كان يتقاضى سبع مئة وخمسين غرشاً في الشهر . وكان قنصل النمسه لويس كتفاكو قد توقع هذا الجواب في حديث بينه وبين السرعسكر فأحضره السرعسكر وقدمه الى بعده الله باشا قائلاً اترى كيف نجحت في الاعتماد عليه والركون اليه وانتهت المقابلة في نصف ساعة وخرج بعده الله وكتخداه فامتطيا خيلها وتوجها الى قصر البهجة حيث بقيا تلك الليلة^(٢٠٢) . وفي الغد أمر السرعسكر بنقل بعده الله باشا الى الاسكندرية ليمثل بين يدي العزير وأمر كلاً من اللواء سليم بك وكاتب الديوان واربعه انقار ان يرافقه الى مصر . وطلب الى خورشيد بك كتخداه بعده الله باشا ان يبقى في عكة ليشرف على احوال حرم الباشا واتباعه . ولكن الحرف استولى على بعده الله وتبع كتخداه باكياً وقال اما ان يقطع ابراهيم باشا راسي او ان يسمح لخورشيد بك بالسفر معي وبات يتضرع ويبكي حتى أمر السرعسكر بتوجه الاثنين معاً^(٢٠٣) . فقاما الى الاسكندرية على ظهر سفينة حربية . وودع بعده الله حصناً كان قد نشأ فيه ثم ما فتى ان تسلمه فبالغ في الانفاق عليه والتفاخر به ومن ثم تركه قاعاً صفصفاً يملوه الدخان وتنبعث من جوانبه روائح الجثث المنتنة .

وعلى الرغم من الاوامر المشددة بتحريم النهب والسلب فان الجنود الفاتحين قضاو ليلتهم يفعلون . وفي اليوم التالي اعيد النظام واعاد بعض الجند بعض ما سلبوا . وعاد قنصل النمسه الى عكة بثوبه القنصلي الفضفاض وقبعته المثلثة الزوايا يستغل خراب بلدة طالما استغل اثراها من قبل . ووضعت السلطات المصرية يدها على مخازن الحامية فوجدت فيها كميات كبيرة من البارود والقنابر والقمح والذرة والارز والعدس تكفي حاميتها مؤونة سنتين كاملتين^(٢٠٤) . وخسر المصريون اربعة الاف ما بين قتيل وجريح . ووقع منهم في اثناء الهجوم الاخير خمس مئة واثنا عشر قتيلاً والالف واربع مئة وتسعة وعشرون جريحاً . وتوفي في اثناء الحصار

(٢٠٢) كادالغان وبارو ص ١٢٨-١٣٦

(٢٠٣) ابراهيم باشا الى محمد علي باشا ٢٨ ذي الحجة سنة ١٢٤٧ (٣٠ ايار سنة ١٨٣٢) : المحفوظات

ج ١ ص ٢١٢-٢١٤

(٢٠٤) كادالغان وبارو ص ١٣٧-١٣٨

من جراء الامراض المتنوعة الفا رجل . اما محسرة عبدالله باشا فانها لم تتجاوز الالف^(٢٠٥) .

٣ - فتح دمشق ولكن من جراء هذا الانتصار ان زادت ثقة الجنود بالقادة وتضاعفت شجاعتهم وانعدت السنة المارضة في طول البلاد وعرضها . ورأى العزيز ان لا ينفك عن طمأنة الباب العالي فكتب الى وكيله في الآستانة محمد نجيب افندي في الثاني من شهر محرم ابي بعد سقوط مكة بيومين فقط يؤكد ولاءه واخلاصه للذات الشاهانية ولكنه نظراً لما كان ينشئه عبدالله باشا من الاقاويل بين الناس من انه مكلف بالتسلط على مصر ونظراً لقرب بر الشام من مصر ووجوب المحافظة على وادي النيل فانه التمس الحاق بر الشام بمصر^(٢٠٦) . وكتب بعد هذا بثلاثة ايام الى الحواجه بريكس يطلب اليه ان يجهز « الجهات المختصة » اي الحكومة البريطانية انه لا يزال عند وعده وانه كرر الطلب بتوجيه ايالة الشام الى عهده وانه في حال عدم القبول يكون قد استولى عليها . ثم يطلب اليه ان يعرض هذه المسألة على الوزراء ويسألهم اذا كانت توافق سياستهم ام لا^(٢٠٧) . وكتب في الوقت نفسه الى ابنه ابراهيم انه لا يوافق على لقب « سرعسكر بلاد العرب » الذي اتخذته لنفسه ويوجب الاكتفاء بالاسم ابراهيم كما اكتفى هو بالاسم محمد علي وأضاف قائلاً ان هذه الالقاب جوفاء . لا تليق بابراهيم وان استعملها يدل على الضعف لا على القوة^(٢٠٨) .

ويعود العزيز الى الحرب فيوجب استغلال النصر ومتابعة الزحف حتى حلب او القربص ثلاثة اشهر بعد الاستيلاء على دمشق حتى ينفذ قوت الاتراك ولكنه يرى في الوقت نفسه ان لا بد من الاتصال بالشهابي الكبير امير لبنان والتداول معه « اذ لا يوجد احد سواه يصلح للاستشارة »^(٢٠٩) . فاتصل ابراهيم بالشهابي الكبير ودرس الموقف معه فاستصوب هذا الهجوم على دمشق أولاً « لانه يوصل الحكومة المصرية الى مقصودها وينيلها مرامها »^(٢١٠) . فتبنى العزيز أمر الزحف على دمشق « تطهيرها » واهدى سلامه الى الشهابي الكبير^(٢١١) .

(٢٠٥) المؤلف نفسه ص ١٣٨-١٣٩ اطلب ايضاً التاريخ الحربي لصر محمد علي الكبير للناظم

عبد الرحمن زكي ٤٠٥-٤٠٦ والارقام المدروجة تشير الى المحسرة في الهجوم الاخير فقط .

(٢٠٦) المحفوظات ج ٢ ص ٣

(٢٠٧) المصدر نفسه ج ٢ ص ٧

(٢٠٨) المصدر نفسه ايضاً ج ٢ ص ٩-١٠

(٢٠٩) المحفوظات ايضاً ج ٢ ص ٥ و ١٢ و ١٨

(٢١٠) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٤-١٥

(٢١١) المصدر نفسه ايضاً ج ٢ ص ١٥-١٦

وأمر ابنه ان يكتب الى والي دمشق علوش باشا هكذا: يا اخي انا اعلم مقدار الخدمات التي اديتها للدولة وانها كافأتك باضطر المناصب وبما انك سوف لا تتمكن من اجراء اي شيء فانها ستعاقبك كما هو معلوم عنها بالاختبار . فتعال يا اخي ويا مواطني لتتأخى وتتحذ معاً لاجراء ملتنا من هذه المذلة^(٢١٢) .

وكان العزير منذ بدء الحصار على عكة قد أمر بمفاوضة اعيان دمشق واجتذابهم الى جانبه . فكتب ابراهيم اليهم وكتبوا هم اليه ووعدوه ولكنهم لم يبروا . وكان الشهابي الكبير يحذره منهم فلا يراهم جديريين بالثقة ولا يستثني احداً منهم سوى علي اغا خزينه كاتبى ورشيد اغا الشملي^(٢١٣)

والواقع ان اغاوات دمشق كانوا قبيل الزحف على عكة قد حرقوا احد ولاتهم محمد سليم باشا الصدر الاسبق . فأمسوا والحالة هذه ينتظرون عقاباً صارماً من الدولة وراحوا يلتمسون المساعدة من عبدالله باشا والي عكة راجين العفو وغص النظر . وما ان ظهرت طلائع الجيش المصري في اقصى فلسطين حتى تمهدوا لحكومة الآستانة «ببذل الروح في سبيل المدافعة عن حقوق السلطان في حال وقوع التعدي من قبل والي مصر»^(٢١٤) . ورأوا من الحكمة ان يعرضوا خدماتهم على الجانب المصري ايضاً كي يمسكوا بالجبل من الطرفين . فقالوا اننا من اخلص عبيد افندينا ابراهيم باشا ولا شبهة في اننا معه قلباً وقالباً في الباطن رغم تصريحنا في الظاهر اننا سنقبل الوالي التركي الجديد . ولكننا نرى في ان لا يتحرك الجيش المصري الى طرفنا قبل الانتهاء من مصلحة عكة . لانه اذا اقدم افندينا الهام الى طرفنا قبل فتح عكة وصادف ان قدمت الجيوش الجرارة من الآستانة فلا شك في ان دولة افندينا يرجع الى مصر ونصبح نحن بلا نصير فتصب السلطات التركية غضبها علينا باعتبار اننا اصبحنا مجرمين في نظرهم مرتين^(٢١٥) . ولكن احدهم على الاقل لا بل اكبرهم واوجههم محمد جوريجي اغا (الداراني) الذي اكد ولاءه للسلطات المصرية في بدء عمليات الحصار

(٢١٢) محمد علي باشا الى ابراهيم باشا ٦ محرم سنة ١٢٤٨ (حزيران ١٨٣٢) : المحفوظات ج ٢ ص ٥

(٢١٣) ابراهيم باشا الى محمد علي باشا ١٦ رجب سنة ١٢٤٧ (١٨٣١) : المحفوظات ج ١ ص ١٥٢

ومن هؤلاء المشار اليهم في الوثائق الملكية محمد جوريجي اغا ومحمد اغا كيلار امينى وشمدين اغا ومحمود اغا حاجي بكرزاده ومصطفى اغا الاورفلي ومحمد اغا اجل يقين .

(٢١٤) علي نجيب افندي الى عبدالله باشا ١٥ رجب سنة ١٢٤٧ (١٨٣١) : المحفوظات ج ١ ص ١٤٦

(٢١٥) ابراهيم باشا الى محمد علي باشا ١٦ رجب سنة ١٢٤٧ (١٨٣١) : المحفوظات ايضاً ج ١

كتب في الآونة نفسها الى عبدالله باشا والي عكة يزوده بالاخبار ويؤكد مُقسماً بقربة الرسول الاعظم « انه باقٍ بالخدمة يخدم بآله واولاده وعياله وروحه الى ان يفرجها المولى ». فضبط كتابه هذا في يد نابلسي في مياه عكة وعرض على ابراهيم باشا^(٢١٦). ومن هنا في الاربع اشهر ابراهيم باشا من اعيان دمشق وقلة ثقته فيهم وقوله لوالده انهم لم يدخلوا في طاعته الا بعد ان توغلت قواته في بلدتهم^(٢١٧).

وفي التاسع من حزيران سنة ١٨٣٢ قام الفاتح المصري على راس قوة تألفت من تسعة الاف نظامي وثلاثة الاف فارس بدوي من عكة الى الزامة فبات فيها ثم انتقل منها الى جسر بنات يعقوب عبر الاردن فقرية القنيطرة فغان سمع . وقام الشهابي الكبير ببضعة الاف لبناني الى وادي الحرير فوادي القرن فقرية داريا خارج دمشق ومعه ولده الامير خليل والاميران الارسلاتيان أمين ومحمد^(٢١٨). فأصبح الجيش الزاحف والحالة هذه مقسماً هكذا: قلبه في بعلبك بقيادة عباس باشا وميسرته في طرابلس تحت امره حسن بك المناستولي وميمته في مداخل دمشق وعلى راسها القائد الفاتح وحليفه اللبناني الكبير^(٢١٩).

فقام علوش باشا والي دمشق بجري اتصالاته باعيان البلدة واغاواتها ويوجب مقاومة المصريين واللبنانيين « ولو ساعة واحدة ». ودعا محمد جورنجي اغا بعض الاعيان اليه ونهى عن مخالفة الدولة وسلح اتباعه ونبه على الاهالي ان يتسلحوا ويستعدوا للكفاح فاحتار هؤلاء في أمرهم ولكنهم انصاعوا اليه في النهاية وخرجوا لقتال المصريين واللبنانيين^(٢٢٠). وما ان فعلوا وخرجوا الى داريا بفرسانهم الثمان مئة وبضعة الاف من المشاة حتى سلط القائد المصري فرسانه العرب واورطة نظامية عليهم ففروا هاربين في ظرف ساعة من الزمن . وفي مساء تلك الليلة في الثالث عشر من حزيران سنة ١٨٣٢ فرّ علوش باشا والقاضي والمفتي والنقيب ومعظم اغاوات البلد الى حصص بطريق النبك ودير عطية . وقام في صباح اليوم

(٢١٦) يوحنا بجري الى الباشماون ٢٧ جادى الاخرة سنة ١٢٤٧ (١٨٣١) : المحفوظات ج ١ ص

١٣٢ و ١٥٤-١٥٦

(٢١٧) ابراهيم باشا الى محمد علي باشا ٩ ربيع الاخر سنة ١٢٤٨ (ايلول سنة ١٨٣٣) : المحفوظات

ج ٣ ص ٩٥

(٢١٨) كادلانن وبارو ص ١٤٩-١٥٠ واخبار الاعيان لطنوس الشدياق ص ٥٧٤

(٢١٩) كادلانن وبارو ص ١٤٧

(٢٢٠) المعلم يوسف القرداحي الى يوحنا بجري فالباشماون ١٣ محرم سنة ١٢٤٨ (١٨٣٣) :

المحفوظات ج ٣ ص ١٩

التالي احمد بك ابن الكنج يوسف باشا وكيل العزير في دمشق قام الى داريا مجهر ابراهيم باشا بواقع الحال . فأوغر ابراهيم الى صديقه الشهابي الكبير ان يقوم الى الشام بجميع رجاله فضل وتبعه ابراهيم على راس الاي الغارديا فحيتة القلعة بالمدافع وبات الجميع تلك الليلة في المرجة خارج دمشق وفي سراي الحكومة داخلها . وفي صباح اليوم التالي نودي بأحمد بك هذا المشار اليه متسلماً على دمشق وبتشكيل مجلس « للشورة » مؤلف من عشرين عضواً منهم المسلم والنصراني واليهودي فخرج علي اغا عرمان محافظ القلعة ومثل بين يدي الباشا وسلّمه مفاتيح القلعة . وعند الظهر قام الباشا بشخصه وحده الى الجامع الاموي لحضور صلاة الجمعة . فاحتر العلاء . والائمة باسم من يخطبون باسم السلطان او باسم العزير . فأجابهم الباشا اني لا ازال عبداً للسلطان فاخطبوا باسم السلطان وادعوا للعزير^(٢٢١).

وعرض القائد الفاتح جنوده وأجرى بعض المناورات العسكرية فخرجت دمشق بأسرها لحضور العرض . « وكان الوزير والامير بشير واقفين قدام الخلق » فتقدم بعض الاغاوات الذين فروا مع علوش باشا و « تراموا » على الامير اللبناني فتشفع بهم امام القائد وقُبلت شفاعته وعفي عنهم - المفتي والقيب ومحمد اغا كيلار امين ورشيد اغا الشملي^(٢٢٢) . ونفى القائد اولاد الزعماء الباقين الذين نكثوا بوعودهم وفروا مع الوالي وأبعد عن دمشق كل من خشي اسره^(٢٢٣).

وترك هذا الفتح اليسير اثرًا بالغًا في نفس ابراهيم فانه كتب الى الديوان الحديوي يقول: « على المصريين الا يأسوا من دخول اللجنة فالجنة نفسها قد دخلت تحت حكمنا^(٢٢٤) . وأعلن نبأ دخوله الى دمشق في مرسوم وجهه الى اعيان حلب واهاليها قال فيه : « ومن ثم اتينا الشام ذات الابتسام فلاقتنا بوجه عبوس وارادت محاربة عساكرنا الشوس فلم يكن اقل من ساعة حتى دخلوا جميعاً تحت نير الاطاعة فدخلناها بسلام بعد التسليم وتلا سيفنا على نار فتنة هذه الاقطار يا نار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم^(٢٢٥) . ولمس العزير اثرًا لهذه

(٢٢١) مذكرات تاريخية بقلم معاصر حكومي نشرها المحوري قسطنطين الباشا ص ٤٨-٥٨ كذلك

كادالغان وبارو ص ١٥٢-١٥٥

(٢٢٢) المرجع نفسه ص ٥٨-٥٩

(٢٢٣) محمد علي باشا الى ابراهيم باشا ٢٦ محرم سنة ١٢٦٨ (حزيران ١٨٥٢) : المحفوظات ج ٢ ص

٢٨ و ٢٢ و ٢٨

(٢٢٤) ٢١ محرم سنة ١٢٦٨ (حزيران ١٨٥٢) : المحفوظات ج ٢ ص ٢٥

(٢٢٥) غير مؤرخ الاصول المربية ج ٢ ص ١١-١٢

الانتصارات في نفس كل من قنصل النمسة وقنصل انكلترة اللذين اخذا ميلان اليه فينقلان اخبار عدوه اليه . لمس فابتهج^(٢٢٦) .

٤ - مرفعة حصن وكان السردار الاكرم قائد القوات العثمانية لا يزال في قونية عندما تسلم نبأ سقوط عكة . وكانت طلائع جيشه مرابطة في ادنه بقيادة محمد باشا . فنقل اليه هذا خبر عكة واقترح ان يقوم سيده الى ادنه حالاً وأن يتقدم هو بالطلائع الى انطاكية . فوافق السردار وأمر القائد الفتى ان يقوم الى حماه بعد انطاكية ويتحصن فيها . وبدلاً من ان يلتحق هو به باقصر ما يمكن من الوقت فانه تباطأ حسب عادته وآثر البقاء في ادنه خمسة عشر يوماً قام بعدها الى الاسكندرونه . وكان قليل الدراية بالنظم الحربية الجديدة لا يعبأ بها فقلت مؤونة جيشه وعلت اصوات الجنود في طلب القوت واشتد احتكاك الجنود غير النظاميين بالنظاميين فكانت فتنة اودت بحياة الدقردار والقاضي واضطر السردار ان يُفقي بوفاتها قضاء وقدرًا من جوار الحيات ثم أُلحَّ القائد الفتى محمد باشا ان تقوم الطلائع الى حماه بسرعة وان ينهض سيده السردار بالجيش الى انطاكية ففعل . وقام الملازم الافرنسي تفتان معاون محمد باشا يدرس امكانيات الصمود في حماه فرأى انها طليقة جداً وان قلعتها بحالة من الاندثار شديدة بحيث لا يمكن ترميمها بوقت قصير فأشار على الباشا بوجوب التقدم الى حمص والارتكاز عليها نظراً لحالة قلعتها ولكثرة جنائنها ومرور العاصي بها مما يعاون في الدفاع . فقام الباشا بالطلائع الى حمص ووصلها في السابع من تموز سنة ١٨٣٢ فاستقبله محمد باشا والي حلب استقبلاً فخماً واقام الولايم على شرفه وبات تلك الليلة مطمئناً ظاناً ان الحمص لا يزال على بعد يومين عنه . وكانت امتعة الطلائع لا تزال في طريقها الى حمص فأسمى الجنود دون اي مأوى او طعام وحبوا الى اسواق حمص يطلبون ما ياكلون . ومما زاد في الطين بلة تفشي الهواء الاصفر بالمدن الشمالية باسرها من حلب وانطاكية حتى حمص^(٢٢٧)

وكانت ميمنة الجيش المصري قد تحركت بقيادة القائد الاعلى في الثاني من تموز فقامت من دمشق طالبة حمص عن طريق القطيفة والنبك وحسيا تؤازرها قوة لبنانية بقيادة بشير الثاني نفسه . وقامت في الوقت نفسه ميسرة الجيش بقيادة حسن المناستولي من طرابلس الى

(٢٢٦) محمد علي باشا الى ابراهيم باشا ٢٩ محرم سنة ١٢٤٨ (تموز ١٨٣٢) : المحفوظات ج ٢ ص ٢٢

(٢٢٧) كالدغان وبارو ص ١٥٩-١٧٢ راجع ايضاً اراء الجنرال ويان في هذا كله ج ٢ ص ٢٤-٣٨

ومسطه ماخوذ من المصدر الاول .

حمص . وانجه عباس باشا بقلب الجيش من بعلبك نحو الهدف نفسه . فوصلت جميع هذه القوات الى القصير بالقرب من حمص في السابع من تموز اليوم الذي وصل فيه محمد باشا بطلائع الجيش العثماني وتزلت بالقرب من العاصي عند تل النبي مند^(٢٢٨) .

وفي اثناء الولاية التي اقيمت على شرف محمد باشا ابتهاجاً بوصوله الى حمص جاء من 'نجبر' ان القوات المصرية أمست في القصير قريبة جداً من حمص فهبَّ من فورهِ يشاور قدكان حربه وزملاءه الباشاوات ومنهم محمد باشا والي حلب . فقال بعضهم بوجود التراجع للاتصال بمعظم الجيش الذي كان لا يزال مرابطاً في انطاكية . وآثر غيرهم الهجوم على العدو حالاً اذ ليس من الممكن ان يتغلب فلاحو مصر على اسيادهم العثمانيين . وكان محمد باشا فيما يظهر يود ان يستأثر بالنصر لنفسه دون مشاركة سيده السردار فأمر باجراء ما يلزم لمجاهة الخصم ومقاتلته . وكان بإمكانه ان يتخذ خطة دفاعية فيستتر في حمص وفي جنائنها ويوقف زحف عدوه الى ان يصل الجيش بمعظمه ولكنه لم يفعل . وفي صباح اليوم التالي خرج بقواته الى السهل الذي يقع الى جنوبي حمص ووزع قواته في صفوف ثلاثة فجعل في القلب عبر الطريق الذي يصل حمص بدمشق الايات من المشاة النظاميين اربعة تتكئ ميمنتهم على العاصي والترعة المتفرعة عنه وميسرتهم في فضاء صحراوي . وأقام خلف هذا الصف الاول صفاً ثانياً مؤلفاً من الايين نظاميين والاي خيالة يدعم بها قلب الصف الاول ومينته . ووضع في الصف الثالث بين العاصي وبين قرية خربة مجاورة تبعد الفا وثمان مئة متر عن القلعة الى جنوبها الشرقي وضع في هذا الصف قواته غير النظامية والاياء من الخيالة النظامية لحماية ميسرته . وجعل لكل اورطة من المشاة مدفعاً ولكل الاي من الخيالة مدفعين ونصب واحداً وعشرين مدفعاً في مواقع معينة خلف ميمنة قواته^(٢٢٩) .

وقام ابراهيم الفاتح في صباح الثامن من تموز من القصير الى حمص فرتب قواته على الشكل التالي : في المقدمة الايات المشاة الثاني عشر والثالث عشر والثامن عشر يتبعها الاي الغارديا والايان آخران من المشاة الخامس والحادي عشر . اما الاي الثامن فانه وضع في الاحتياط خلف قلب هذه القوة . واتخذت الاورط شكل قوس مزدوج مفتوح غير كامل الانتشار . وجعل القائد ثلاث بطاريات من المدفعية في الصف الاول واربعاً مع اوبوسين في الحطين الاول والثاني ثم وضع ثلاثة الايات من الخيالة في ميمنة القوة وثلاثة غيرها في ميسرتها

(٢٢٨) الجواب على اقتراح الاحباب لمخائيل مشافة - نسخة جامعة بيروت - ص ٢٤٠

(٢٢٩) كادالغان وبارو ص ١٨٠-١٨١ وبيان ج ٣ ص ٣٧ عبد الرحمن زكي بث ص ٤١٠-٤١١

وجعل قواته غير النظامية من البدو تحرس اطراف جانبي الاحتياط . وأقام اللبنانيين بقيادة اميرهم بشير الثاني في القلب يحرسون الذخائر والمهمات .

ولس القائد المصري ضعفاً في ميسرة خصمه اذ وجدها خالية من الموانع الطبيعية فرأى أن يقوم قلب جيشه بهجوم شديد على خصمه وان يقوم المشاة من ميسرته بهجوم خادع على ميسنة خصمه ثم يندفع هو بالمشاة والحياالة والمدفعية على ميسرة العدو فيلتف حولها ويقضي عليها . فتحركت الحياالة واجتازت القرية الحُرْبَة في ميسرة الأتراك ثم هجمت على الحياالة الترك فتراجع هؤلاء . وتفرقوا واحتل المصريون الارض وراء القرية وبينها وبين حدائق حمص . وحاول الفرسان النظاميون من الأتراك صد الهجوم المصري ولكنهم لم يفلحوا فانهارت ميسرة الأتراك وتقهقرت . وانثنى قلب الأتراك من جراء النيران المحكمة . فأمر محمد باشا القائد العثماني بالهجوم على مدفعية ميسنة المصريين فقابلته مدفعية الغارديا بالنار واكرهته على التراجع . وأسدل الليل ستاره فامتطى محمد جواده قاصداً حمص وفعل مثله غيره من القواد واقتدى الضباط بالقادة ثم حلت الفوضى في صفوف الجند فالهزيمة فالذعر^(٢٢٠) .

وفي صباح اليوم التالي دخل الامير اللبناني برجاله الى حمص ليرتب امورها « فداست بحيله القتلى مسافة ميل في سهل بابا عمر » واستقر في السراي فطلب الى القاضي والمفتي ان يُعنيا بدفن القتلى . ثم ارسل الاسرى والجرحى الى عكة بحراسة قوة لبنانية يتقدمها الشيخ حسين تلحوق . وأطلق سراح ثمان مئة ارميني كانوا في خدمة الأتراك فسلمهم مطران الروم . وقام كاتبه مخائيل مشاقه الى جسر الميلاس لضبط مخلفات الوزراء « فوجد الخيام بفرشها حتى ان الافندي كاتب الديوان ترك دواته الفضية واقلامه والورق على الارض والطبايخ كانت باقية محروقة على النار »^(٢٢١) .

٥ - **يوليو** وجدَّ القائد الفاتح في اثر عدوه منذ العاشر من تموز فبات ليلته الاولى في الرستن في منتصف الطريق بين حمص وحماء وجاءه من ينبجوه بان الباشاوات لم يدخلوا حماه بل تعدوها وتركوا وراءهم ستة من مدافعهم ثم تركوا خمسة غيرها والتجأوا الى قلعة المضيق . فقام من فورهم الى حماه ووصل اليها بعد ساعتين ونصف الساعة . وكتب الى والده بانه وصل الى حمص وتقابل مع ثمانية من الباشاوات واربعة الايات من المشاة وثلاثة من الحياالة وخمسة عشر الفاً من العساكر غير النظاميين وحمل عليهم بالقول بان محمد علي هو

(٢٢٠) كالدنان وبارو ص ١٨٠-١٨٩ عبد الرحمن زكي بك ٤١١-٤١٥ مخائيل مشاقه ص ٢٤١

(٢٢١) الجواب على اقتراح الاحباب ص ٢٤٥-٢٤٦

الباشا وبان سره وسيفه ورمحه هو ابراهيم وانه ضربهم وشتت ثملهم حتى قتل منهم الفين نفر وجرح الفين وانه أسر ما ينوف عن الثلاثة الاف من العساكر النظامية واستولى على عشرين مدفاً وعلى ذخائر وخيام لا تعد وانه ارسل الجرحى والاسرى الى عكة فصار فتح حمص وحماه بعد انهزامهم . فاذا يريد المصريون منه ومن والده وهو قد فتح لهم الشام مثال الجنة وألحق بحكومة مصر حمص وحماه ايضاً وانه سيستولي على الممالك بالسيف والمدافع والبنادق حتى اسكودار . ثم يدعو لوالده بطول العمر والبقاء . وانه هو ومن معه يقدمون انفسهم في خدمته وخدمة الملة^(٢٢٢) . فأنشد « لسان الحال » في الوقائع المصرية :

عزير مصر ادام الله سطوته حاز الممالك من دان ومن قاصى
هذى حماة وهذى حمص أرختا مجد حوى الشام واستولى على العاصى^(٢٢٣)

وكان السردار الاكرم قد بلغ انطاكية وبارحها متجها نحو حمص فالتقى بغلول الجيش المهزوم وعرف منهم نبأ الهزيمة فارتد الى حلب ليتخذها قاعدة للقتال وطلب الى اعيانها ان يدعوه بالمؤونة والرجال فتشاوروا ورفضوا الاشتراك في الحرب وابوا على جيش السردار ان يدخل احد منه الى المدينة ولم يسمحوا بذلك الا للجرحى والمرضى واغلقوا ابواب البلاد !

وفي خلال ذلك كان ابراهيم باشا قد تقدم من حماه الى المرة سالكاً طريقاً مطشة منهاكاً جنوده من شدة الحر وقلة الماء . ولدى وصوله الى قرية زيتا جاءه جماعة من العرب يجربونه بما حلّ بالسردار في حلب وبقيامه منها فأسرع اليها بالفرسان وستة مدافع ووصلها في الخامس عشر من تموز واستقر في الشيخ بكر في ظاهرها . فخرج اليه وجهاؤها واعيانها يقدمون الطاعة^(٢٢٤) . وكان ابراهيم قد كتب الى مفتي حلب يستطفه منذ دخوله الى دمشق وكتب ايضاً في الوقت نفسه الى مفتي مرعش الذي كان قطباً في حلب يجبره عن فتح عكة ودمشق وطرابلس ويقول له انه ذاهب الى حلب لانها من بلاد العرب الطاهرة ولانه يجب تخليصها من ادران الظلم والفساد ويوضح له خروج الدولة عن الدين والشرع . وقوى ابراهيم هذا القول بالفعل فكان ما كان من موقف القاضي والمفتي وامتناعها عن تقديم المؤونة للسردار كما أوضحنا^(٢٢٥) . ولا يُستبعد ان يكون القائد المصري قد اتصل في الوقت

(٢٢٢) مترجم من اصل ضائع : نفوس النيل في عصر محمد علي باشا لامين سامي باشا ج ٣ ص ٤٠٠

(٢٢٣) الوقائع المصرية : ٢٣ صفر سنة ١٢٤٨ العدد ٤٠٢

(٢٢٤) الوقائع المصرية عدد ٤١١ - ٣ ربيع الاول سنة ١٢٤٨

(٢٢٥) محمد علي باشا الى ابراهيم باشا ١٣ محرم سنة ١٢٤٨ (١٨٣٢) : المحفوظات ج ٢ ص ١٨

نفسه بزعماء الانكشارية في حلب للناية نفسها او ان يكون الامير الشهابي قد فعل مثل ذلك نظراً لطلاقاته الطيبة مع بعضهم . ومن هنا في الأرجح تعيين ابراهيم اغا سيف زاده الانكشاري مسلماً على حلب حال استيلاء المصريين عليها^(٢٣٦). وكان العزيز منذ سقوط مكة وفتح دمشق قد ارسل الى بر الشام محو بك الكردي ليتحقق بانبه ابراهيم ويستميل اكراد الجزيرة وجنوبي الاناضول^(٢٣٧). ففعل فياً يظهر ونجح في مهمته وجاءت وفود اورفه وديار بكر الى حلب تعلن خضوع هاتين المدينتين وتوابعهما لحكم العزيز^(٢٣٨).

ورأى «السرदार الاكرم» ان يأوى الى مكان حصين يصمد فيه فانسحب الى مضيق بيلان عبر جبال الامانوس التي تفصل بين بر الشام وبين اذنه وتعلو في بعض قممها الفأ وثمان مئة متر . فشطرت قواته شطرين ارسل احدهما عبر كليس والاخر عن طريق انطاكية . واتخذ مواقفه على قمم الجبال فاحتشد المشاة فوق هضبة على خط منكسر يصل طرفه الايمن الى طريق وعر يمتد الى الجبل آتياً من خان قوموط ذاهباً الى بيلان وطرفه الايسر الى الطريق الوسط الواصل الى بيلان نفسها . وكانت ميسرة هذا الجيش ترابط على امتداد هذا الخط فياً يلي هذا الطريق ، ويشد ازرها بعض المدافع المنصوبة على اكمة قريية من الطريق . وأقام السرदार امام صفوف المشاة استحكامات نصب فيها المدافع وامامها الفرسان .

وقام ابراهيم الفاتح من حلب في السادس والعشرين من تموز متابعاً خصمه فأرسل النظاميين من قواته عن طريق كليس وأسر غير النظاميين ان يتوجهوا الى بيلان عن طريق انطاكية . ولدى وصوله الى مضيق بيلان في التاسع والعشرين عسكر في السهل المنبسط تحت المضيق . ثم أنعم النظر في مواقع خصمه فألقاها منيعة يصب على جيش مرابط في السهل ان ينال منها منالاً . فاجتمع الى قواده ومعاونيه وتداولوا واياهم الرأي فامتنع عن مهاجمة الترك مواجهة ورأى ان يدور حول ميسرتهم فيحتل بعض المضاب التي تمكنه من التسلط على قلب الجيش التركي وجعل مشاته هدفاً لنييران مدافع مصر . ويرسل في الوقت نفسه بعض قواته للاحاطة بميمنة الجيش التركي .

فانفذ القائد المصري الاي القارديا والالاي الثامن والثامن عشر من المشاة الى طريق كليس بيلان فساروا اليه واحتشدوا وراء اكمة ووراءهم الفرسان والمدافع ثم اخذوا يتحركون

(٢٣٦) الاصول العربية ج ٢ ص ٢٢

(٢٣٧) ١٤ محرم سنة ١٢٤٨ (١٨٣٢) : المحفوظات ج ٢ ص ١٩

(٢٣٨) كادالفان وبارو ص ٢٠٢

شراً باتجاه ميسرة العدو . وقد تولى ابراهيم باشا بنفسه قيادة هذه الحركة لان عليها الموئل . وكانت تكتنف هذه الحركة مصاعب جمة لان المصريين اضطروا ان يسيروا صعداً في طرق وعرة . وما ان لمح الترك تقدمهم حتى صوبوا مدافعهم واطلقوها عليهم . فأمر ابراهيم بنصب مدافعه وراء الأكمة التي احتشد فيها المشاة واطلقها على خصمه بين القلب والميسرة . واستمر المصريون في زحفهم شرقاً الى ان تحطوا ميسرة خصمهم فهاجموه من الامام ومن الجنب وزحزحوه عن مراكزه فاضطرب واضطر ان يرتد شمالاً وبدأت هزيمته . ووصل المصريون الى مرتفعات تشرف على مراكز العدو ونصبوا فيها المدافع وصبوا نيرانها على ميسرة الحُصم المنسجبة فاشتد اضطرابها وحلت بها خسائر جسيمة . وكان قد تقدم فريق من جنود الالاي الثامن عشر واقتربوا من فرسان الترك امام قلب الحُصم وهاجموه وقت احاطة جنود الفارديا والالاي الثامن بالميسرة فسارعوا الى الارتداد مرتبكين مشتتين . ولما وصل المصريون بميمنتهم الى طريق بيلان تخرج مركز قلب العدو وأدرك ان خط الرجعة الى بيلان أصبح مقطوعاً فلم يثبت امام هجوم المصريين ولاذ بالفرار متشتتاً في الجبال . وكان قد انفذ القائد المصري الالاي الثالث عشر من المشاة بقيادة حسن بك المناستولي تصحبه بطارية من المدافع الى الطريق الذاهب من انطاكية الى بيلان واردفه بالالاي الخامس احتياطاً . فتقدم هؤلاء ووصلوا الى اكمة قريبة من اقصى ميمنة عدوهم فلم يصمد الترك هنا بعدما علوا بما اصاب الميسرة . فتخلوا عن مراكزهم وتقهقروا في الجبال . وبذلك انتهت واقعة بيلان بعد قتال دام ثلاث ساعات فقد فيه الترك الفين وخمس مئة قتيل وجريح والفين من الاسرى وخمسة وعشرين مدفأً وكثيراً من الذخيرة^(٢٢٤) . ولم يعترف المصريون باكثر من عشرين قتيلاً .

وفرت فلول الترك الى الاسكندرونة لتصل بالاسطول الهايوني ولكنها لم تدركه . فسار المصريون في اعقابها واسروا الكثير منها واحتلوا الاسكندرونة وباياس وانطاكية واللاذقية . واختفى «السرदार الأكرم» هائماً على وجهه متنكراً خوفاً من الفضيحة والقصاص . ولكنه لم يتورع عن شرب الشامانية لدى الفنصل مرتينلي في الاسكندرونة ومن جمع جواهره وارسلها على ظهر سفينة يونانية الى طرسوس^(٢٤٠) .

(٢٣٩) كادالغان وبارو ص ٢٠٥-٢١٣ الحركة القومية لعبد الرحمن الرافعي بك ج ٣ ص ٢٥٢-٢٥٦

(٢٤٠) كادالغان وبارو ص ٢١٣-٢١٨

٦ - مؤامرة الجيش الفاتح واهتم القائد الفاتح لصيانة مؤخره جيشه الزاجف فأبعد عن بر الشام جميع عناصر المخالفة . وسلم الاحكام للشهائي الكبير امير لبنان واصدقائه واعوانه فحصل ابراهيم اغا سياف زاده مسلماً في حلب وبطال محمد اغا مسلماً في انطاكية ورشيد اغا الشملي مسلماً في حماه ومصطفى اغا بربر مسلماً على طرابلس واللاذقية . وألحق بيروت وصيدا وصور بلبنان فانتب الشهائي الكبير الامير ملحم الشهائي لادارة بيروت والامير بشير قاسم لادارة صيدا والامير حسن الاسعد لتدبير امور صور . وابقى ابراهيم في عكة كاتب ديوانه محمد منيب افندي وأحاطه بمجلس خاص - مجلس اوردو عكة - مؤلف من الشيخ حسين عبد الهادي والشيخ احمد عبد الحليم والمعلم يوسف القرداحي والمعلم يوحنا مجري . ورأى القائد الفاتح ان يُسرع في اشراك اعيان دمشق في الحكم فأمر بتشكيل مجلس فيها منذ دخوله اليها وطلب الى الشهائي الكبير ان يعاونه في انتقاء الاعضاء فأبقى هذا المعلم بطرس كرامه مدير اموره في دمشق خصيصاً لهذه الغاية . وبعد شهر من الزمن صدر امر القائد بذلك فتشكل المجلس من وجهاء البلدة ليسمع جميع الدعاوى فيحول الشرعية منها الى قضاة الشرع ويفصل في السياسة باتفاق الراء ثم يحول قراره النهائي الى المتسلم لتنفيذه^(٢٤١) .

وأبت صيدا ان تخضع لحكم الشهائي الكبير . وترعم هذه المعارضة فيها القاضي الشيخ محمد يونس واخوه المفتي . وتظاهر اعوانها بذلك مشهرين السلاح . وشكوا أمرهم الى محمد منيب افندي في عكة . ورفع هذا شكواهم الى ابراهيم باشا فأمر هذا بقصاصهم وطلب الى الشهائي ان يلتقي القبض على القاضي والمفتي واعوانها ويودعهم السجن ففعل . وأمر بقطع راس من شهر سلاحه في وجه المتسلم اللبناني الامير بشير قاسم . فنفذ أمره على باب البلدة^(٢٤٢) .

٧ - في الاناضول ولم تنتهِ غزيرة محمود الثاني امام الهزائم التي حلت بجيوشه في حمص وبيلان . فأعد جيشاً جديداً وعمد بقيادته الى الصدر الاعظم محمد رشيد باشا رفيق ابراهيم باشا في حرب الموره . وعرض السلطان هذا الجيش الجديد بنفسه لينفخ فيه روح الشجاعة والاقدام ثم دفع به الى الاناضول . فاضطر العزيز ان يأمر ولده بتبابعة الزحف والقتال . واحتل ابراهيم اورفه وعينتاب ومرعش وقيصريه ثم اجتاز حدود

(٢٤١) الاصول العربية ج ٢ ص ١٨-١٩ و ٢٩-٣٠ ونقوم النيل لامين سامي باشا ج ٢ ص ٤٠١

والمحفوظات الملكية المصرية ج ٢ ص ٣٥ وحروب ابراهيم باشا للقس انطون الحلبي ج ١ ص ٢٤

(٢٤٢) حروب ابراهيم باشا للقس انطون الحلبي ج ١ ص ٢٧-٢٨

بر الشام الشمالية ودخل ادنه وأقام فيها مدة يرتب اموره ويستعد للزحف على الاناضول. ثم نهض بجيشه فاقصى الاتراك عن كوكك بو غاز وجفت خان واولو قشلاق واركلى فانفتحت طريق قونية امامه ومضى في زحفه حتى بلغها فاحتأها بدون نزاع وجعلها قاعدة امامية لمتابعة اعمال الفتح .

وفي الثامن عشر من شهر كانون الاول سنة ١٨٣٢ وصلت طلائع الجيش العثماني الجديد الى شمالي قونية . فناوشها ابراهيم باشا واستدرجها للقتال ولكن قائدها رؤوف باشا تجنب الدخول في معركة محددة . وفي العشرين من الشهر نفسه وصل الجيش باكله بقيادة الصدر الاعظم . وفي اليوم التالي وقعت الواقعة واشتد وطيسها وكان الضباب كثيفاً ورأى الصدر ان يلم تلك ميسرته وييث الحمية في نفوس رجالها فترز الى حيث مواقع الجند ولكنه ضلّ الطريق لتكاثف الضباب فوقع في ايدي المصريين اسيراً وكان قد مضى على نشوب القتال نحو الساعتين . وانتهت المعركة بهزيمة الترك وتقهقرهم وانفتحت طريق الآستانة فتقدم القائد الفاتح دون معارضة حتى كوتاهية . وأحبّ ان يتقدم منها الى بروسه ليخلع السلطان وعلي ارادة العزيز على اخضامه وألحّ في ذلك ولكن والده أثر التريث لتخرج الموقف من الناحية الدولية^(٢١٤) .

(٢١٤) اطلب النص الكامل لرسالتين من ابراهيم الى والده في هذا الموضوع في كتابنا اسباب الحملة

الفصل الخامس

كوتاهية وهنكار اسكله سي

١٨٣٣

١ - **السلطان يطلب المعونة** وخشي السلطان سوء العاقبة بعد قونية لا بل ارتعدت فرائصه . فعرض على الحكومة البريطانية عقد تحالف ثم ارسل سفيره في فيينا الى لندن يفاوض في ارسال مدد مجري يقوم هو بنققاته^(٢٤٤) . وبات ينتظر الجواب . وأراد العزيز ان يستغل نصره في قونية فكتب الى ناظر الطوبخانه خليل رفعت باشا يدعو اليه للبحث في الصلح وتضيد الجروح^(٢٤٥) . ثم ورد جواب الحكومة البريطانية على اقتراح السلطان بالفرض نظراً لانشغال قواتها في مياه هولندا والبرتغال^(٢٤٦) . فلم يبق لدى السلطان عندئذ سوى الموافقة على اقتراح العزيز لما في ذلك من كسب للوقت . فأوفد خليل رفعت باشا ناظر الطوبخانه ومستشار السلطان الحاصل ومصطفى رشيد بك أمدي الديوان الهايوني وسألها بفرمان سلطاني يتضمن العفو ١٤ مضي والحاق اياها صيدا وتوابها بحكومة العزيز^(٢٤٧) . ولدى وصولها الى الاسكندرية في الحادي والعشرين من كانون الثاني سنة ١٨٣٣ وإطلاع العزيز على مضمون الفرمان السلطاني هبّ العزيز يدعو بحفظ الذات الشاهانية ويؤكد وجوب التوقف عن الزحف بعد قونية^(٢٤٨) . ثم أخذ يداعب الوفد ويفاوضه للوصول الى حل يرضي الطرفين . وما ان علم ابنه ابراهيم بقيام هذا الوفد المفاوض من

(٢٤٤) بريطانية والقرم للدكتور هارولد تمبلي ص ٦٣

(٢٤٥) احمد خلوصي باشا الى محمد رشيد باشا ١٥ شبان سنة ١٢٤٨ (٩ كانون الثاني سنة ١٨٣٣) :

المحفوظات الملكية المصرية ج ٢ ص ٢٢٠

(٢٤٦) المحفوظات البريطانية - الخارجية - ٧٨ ج ٢٢١ تاريخ ٨ كانون الثاني ١٨٣٣

(٢٤٧) البارون فارني الى وزير الخارجية : الحرب الشامية لجورج دوان ج ٢ ص ٤-٥

(٢٤٨) محمد علي باشا الى الصدر الاعظم والى السرعسكر في الأستانة ١٢ رمضان سنة ١٢٤٨ (٣ شباط

١٨٣٢) : المحفوظات الملكية المصرية ج ٢ ص ٢٤٤

الآستانة ووصله الى مصر حتى كتب الى والده يوجب المطالبة بالاستقلال التام وبضم بر الشام واذنة وقهرص وال عراق الى مصر مؤكداً له بإمكانه ان يطي هذه المطالب املاء وان يجابه الدول بالامر الواقع قبل ان يتسنى لها التدخل الفعلي . ورأى ايضاً ان المصلحة تقتضي بملج السلطان وباجلاس ولي الهد مكانه صوتاً للحقوق المكتسبة^(٢٤١) .

٢ - التدخل الروسي
وكان القيصر الروسي نيقولاوس الاول (١٨٢٥-١٨٥٥) منذ نهاية الحرب الروسية التركية وتوقيع معاهدة أدرنه قد طلب الى سبعة من اكبر اخصائه ان يدرسوا القضية التركية مجدداً ويتقدموا باقتراحات تدير سبيله وتمكنه من اتخاذ خطة رشيدة في معالجة هذه القضية . فرأى داشكوف احد كبار هؤلاء . ان طرد الاتراك من اوروبه قد يؤدي الى انفعال كبير في نفوسهم فيزيدهم نشاطاً وقوة ويزدادون ازعاجاً في منطقة القوقاس . ثم اضاف ان اقتسام الاراضي التركية في اوروبه يجر النفوذ النمساوي الى البوسنة والجبل الاسود وألبانية ويجذب البريطانيين الى جزر ايجه والفرنساويين الى مصر فيستبدل جأراً ضعيفاً بجزيران اقوياء . وقال زميله نسلرود ايها انفع لنا زوال الحكومة العثمانية ام بقاؤها ؟ لا سرا . في ان اعادة المباداة الارثوذكسية الحسنة الى الكنائس التي اصبحت جوامع في الآستانة تريد في شرفنا وتخلد ذكرنا في التاريخ ولكنها تؤدي في الوقت نفسه الى عراك مع دول اوروبه العظمى . فقرّر قرار اللجنة على استبقاء الدولة العثمانية والمحافظة عليها حرة طليقة خالية من اي نفوذ اجنبي^(٢٥٠) .

وهكذا فاننا نرى القيصر في ربيع السنة ١٨٣٢ يهتم اهتماماً فائقاً لنداء الحكومة العثمانية ورجائها بان تحافظ الدول على الحياد في حربها مع والي مصر وان تمتنع عن ارسال المؤن والعتاد له نقول نرى القيصر يهتم لهذا النداء فيأمر بالعمل بموجبه ثم يُقفل قنصليته بالاسكندرية ويحيل اعمالها الى قنصل توسكانة^(٢٥١) ويوفد بعد انهزام الجيش العثماني في حمص وبيلان مندوباً خاصاً الى الآستانة الجزرال مورافيف ليعرض على الباب العالي معونة فعلية توقف ابراهيم باشا وتفرض على العزير طاعة سيده فرضاً .

وصل الجزرال مورافيف الى الآستانة في الثاني والعشرين من كانون الاول . وفي الثالث

(٢٤٩) راجع كتابنا اسباب الحملة المصرية ص ٥٣-٦٢

(٢٥٠) بريطانية والقرم للدكتور هارولد تمبرلي ص ٥٧ و ٦٩

(٢٥١) يونانييف الى لافيزون ٣٠ تموز سنة ١٨٣٢ : المحفوظات الروسية في مصر لرينه قطاوي بك

والشمرين منه قابل وزير الخارجية (ريس افندي) وعرض باسم القيصر معونة برية وبحرية . ثم اعلمه انه في طريقه الى الاسكندرية ينقل الى واليا رغبة سيده في وقف القتال . وبعد ان اوفد الكولونيل دي هامل الى ابراهيم باشا لاعلامه بذلك قام هو الى الاسكندرية في الرابع من كانون الثاني سنة ١٨٣٣ فوصلها في العشرين منه وقابل العزيز في اليوم التالي فأبلغه امنية القيصر ورغبته في الوصول الى سلم اكيد وقال ان جلالاته يعتمد في ذلك على نبل العزيز وانه يأمل ان يعمل العزيز ما في وسعه للوصول الى هذه الناية . وكان العزيز قد توقع بناء على معلومات سابقة لهجة عسكرية قوية فتأثر من لطف الجنرال الروسي وتأدبه وقبل طلب القيصر وأمر بالكتابة الى ابنه فوراً بحضور المندوب نفسه بان يتف عند قونية^(٢٥٢) .

وكان العزيز يخشى نفوذ الدول ويتهب تدخلها فتابع اتصالاته بالوفد التركي وافهم خليل رفعت باشا بانه لن يرضى بايالة صيدا وحدها وطلب الحاق ايالات بر الشام جميعها بحكمه وممها « محصلية » ادنة لوفرة اخشابها وشدة احتياجه لهذه الاخشاب . وقام مصطفى رشيد بك الى الآستانة يسمى لهذه الناية^(٢٥٣) . وسرت اشاعة في الدوائر المقربة ان خليل رفعت باشا نصح في تعريب وجهتي النظر وفي انشاء تفاهم شخصي بين العزيز وبين خصمه محمد خسرو باشا في ان يقتسا النفوذ في الدولة كل في منطقتة فيسعيان معاً لسعادة الكل^(٢٥٤) . ورأى العزيز الا يطيعه ابنه في التوقف عن الزحف الى ان ينال ما طلب^(٢٥٥) . فتقدم ابراهيم مجيشه الى كوثاية وهدد بالزحف على بروسه مما اضطر احمد فوزي باشا مشير الخاصة ان يكتب اليه بان يمتنع عن الزحف على بروسه والا يقترب من الآستانة حقناً لدماء المسلمين^(٢٥٦) . وطفع الكأس ورجحت كفة الموالين لروسية بين رجال البطانة وطلب السلطان المعونة المروضة فurst في العشرين من شهر شباط من السنة نفسها امام ثرابيه حيث دار السفارة البريطانية قوة بحرية روسية صغيرة ونزل الى البر الآسيوي المقابل خمسة عشر الف جندي روسي^(٢٥٧) .

(٢٥٢) ميسو الى وزير الخارجية ٢٦ كانون الثاني ١٨٣٣ : الحرب الشامية الاولى لجورج دوان ج ٢

ص ٢٧ اطلب كذلك المحفوظات الملكية المصرية ج ٢ ص ٢٣١

(٢٥٣) ميسو الى وزير الخارجية ٤ شباط ١٨٣٣ : المؤلف نفسه ج ٢ ص ٧٠ راجع ايضاً بلاغ سامي

بك الى الدبوان الحديوي : نفوم النيل لامين سامي باشا ج ٢ ص ٤١١

(٢٥٤) رسالة ميسو نفسها المشار اليها آنفاً .

(٢٥٥) محمد علي باشا الى ابراهيم باشا ٩ رمضان ١٢٤٨ : المحفوظات المصرية ج ٢ ص ٢٤٥

(٢٥٦) ١٣ رمضان ١٢٤٨ (٤ شباط ١٨٣٣) : المحفوظات المصرية ج ٢ ص ٢٤٥

(٢٥٧) روسان الى وزير الخارجية ٢٤ شباط ١٨٣٣ : دوان المؤلف نفسه ج ٢ ص ٩٩-١٠٠

٣ - موقف الدول
 وكانت الدول لا تزال ترقب الاحوال عن بعد . ولكن لما كسب الغريز الواقعة واشتد هرع السلطان بدأت هذه الدول تتحمل حتى اذا ما ظهرت روسية في الميدان بمجرد ما اوجست الدول خيفة وبدأ ساستها يتكلمون . ووافق ظهور الاسطول الروسي في ميهاء البوسفور وصول سفير فرنسا الجديد الاميرال روسان . وكان هذا مستقل الرأي صريحاً معجباً بنفسه قليل الحجة في السياسة . فثار ثأره لظهور هذا الاسطول وتسرع في عمله فبدأ بان تصد لدى الحكومة العثمانية بان يقبل محمد علي شروط الصلح التي نقلها اليه خليل رقت باشا وفي مقابل هذا يتعهد الباب العالي برفض المساعدات الاجنبية^(٢٥٨) . واتبع هذا بسرع آخر ذلك انه كتب الى الغريز كتاباً جافاً قال فيه : « ان اصرارك وادعاءاتك ستجر على راسك عواقب وخيمة ارجو ان يردعك الخوف عنها . وان فرنسا ستمسك بالتهديدات التي ابرمتها وان لها القوة وانا ضمن صدق ارادتها . واني ارجو الا تضطرونا لاستعمال القوة ضد مملكة نحن من مشيديها . فقام قنصل فرنسا في الاسكندرية المسيو ميمو والبارون ده بور الكونت يخنغان من وطأة هذا ثم كتب الغريز يرفض رفضاً جميلاً : « اسمح لي يا سيدي ان اسألك باي حق تطلب مني تضحية نفسي . ان الشعب معي . وما علي الا ان ارفع اصبعي فائبر الثورات في الروملي والاناصول . وما دام الشعب معي فني مقدوري ان اعمل كل شيء . وان دعوتك لي بان التحلي عن الاقاليم التي احتلها هي بمثابة حكم بالاعدام غير اني واثق ان فرنسا وانكلترة لا تبخلان بالانصاف^(٢٥٩) . فساد الاميرال الى رشده يطلب المستطاع الذي يمكن تحقيقه فبدأ ينصح الى الباب العالي باجابة طلب الغريز .

وكان الكونت بالمستون كما اشرفنا سابقاً قد تردد في اعماق نفسه فيما اذا كان قيام دولة فنية في مصر والشام اقرب لمصالح بريطانيا من الاستبقاء على الدولة العثمانية بكاملها ام لا فالترم حياً كان اقرب لمصالح الغريز منه لمصلحة السلطان . ولكن انهيار الدفاع العثماني وتقدم الغريز الى كوتاهية وتدخل روسية ذاك التدخل الفعلي تزع عن قضية الغريز صبغتها المحلية وجعل منها قضية دولية لا بد من معالجتها كي لا يتفاقم شرها . وهكذا فاننا نرى الوزير البريطاني يعين في كانون الثاني من السنة ١٨٣٣ الكولونيل كامبل قنصلاً عاماً ومعتمداً سياسياً لدى حكومة الغريز ويطلب اليه ان يؤكد للغريز ان حكومة جلالاته

(٢٥٨) تاريخ مصر السياسي لمحمد رقت بك ص ١٩٢

(٢٥٩) المرجع نفسه ص ١٩٢-١٩٤

البريطانية لا ترضى عن تجزئة الدولة العثمانية . ولكن المستر كامبل لم يصل الى مصر قبل السادس والعشرين من اذار^(٢٦٠) . وفي السابع من اذار كتب الوزير البريطاني يعتقد عن تقديم المعونة لحكومة الآستانة ولكنه وعد بالاسفاف السياسي فتعاون مع الحكومة الفرنسية تعاوناً جدياً وأرسل في نيسان ينذر العزيز بحصار مجري . ثم رأى ان الضرورة تقتضي باللجوء الى القوة فأمر السر تشارلس هوتام ان يقوم بوحدات بحرية الى الدردنيل ففعل في شهر ايار فبدأ عمله متأخراً^(٢٦١) .

ولم يكن للبرنس مترنيخ سوى سياسة واحدة في الشرق وفي الغرب ممأ وهي سياسة المحافظة على التقاليد الموروثة واتحاد الحركات القومية واحترام الحقوق الشرعية . ولذا فاننا نراه يتدب الكولونيل بروكش فون اوستن لتمثيل حكومته في مصر . وكان هذا قد جاب مصر طولاً وعرضاً في السنة ١٨٢٦ فأعجب بعقلية العزيز وتفوقه على اقوانه . ونشر مذكرات عن وادي النيل في مجلدات ثلاثة . ووصل مصر في اوائل نيسان ونقل الى سيدها موقف حكومته من المشكلة القائمة بين السلطان وبين العزيز فبين للعزيز حرجة الموقف الدولي ورجاء ان ينهي المشكلة في اقرب وقت ممكن^(٢٦٢) .

٤ _ **اتفاق كوتاهية** وأدى التهديد بالزحف على الآستانة وخطر نشوب ثورة في الاناضول وانقطاع قسم وافر من القوات عن الآستانة من جراء وقوع الاناضول في يد العزيز وامتعاض الراي العام الاسلامي من التعاون مع روسية عدوة الدولة القديمة وضغط الدول الغربية على كل من السلطان والعزيز تقول أدى هذا كله الى قيام مصطفى رشيد بك آمدي الديوان المهابوتي في الثلاثين من اذار الى المسكر المصري حاملاً بيده خطأ شريفاً بتوجيه جميع الايالات الشامية الى عهدة العزيز . ورافق الآمدي في هذه الرحلة القائم باعمال السفارة الافرنسية البارون دي فارين . وكان القائد المصري قد أصدر اوامره للزحف على الآستانة فأوقف قواته وبات ينتظر تعليمات جديدة من والده ولكنه لم يتردد في المطالبة بادنة وملصقاتها فوافق الآمدي على ذلك وشرع ابراهيم يستمد للتراجع عن بروسة . ولكن ادعاء الباب العالي بان المفاوضات التركي تخطى حدود صلاحياته وصدور التوجيهات الجديدة

(٢٦٠) عن المحفوظات البريطانية - وزارة الخارجية - ٧٨ سجل ٢٢٩ نقلًا عن الامبراطورية المصرية

للدكتور محمد صبري ص ٢٢٩

(٢٦١) اطاب كتاب الدكتور مارولد نمبرلي المشار اليه آتفاً ص ٦٢-٦٦

(٢٦٢) ميسو الى وزير الخارجية ٦ نيسان سنة ١٨٣٣ : الحرب الشامية الاولى لجورج دونان ج ١

خالية من اية اشارة الى الحاق ادنه بالحكم المصري اعادا التأزم الى حاله الاول . فقام ممثلو الدول الغربية يعيدون الكرة في الضغط على السلطان . ووافق هذا كله وصول السفير البريطاني الجديد اللورد بونسوني الى الآستانة الذي تبني موقف زملائه . وهب العزير في الوقت نفسه يخاطب الآستانة بشدة قائلاً « سبحان الله كلما ازددت رغبة في تقديم الخدمات للدولة اعترضني شوائب عدم الامان وهكذا فانهم يعملون على اخراحي من دائرة الادب»^(٢٦٣) . فوافق السلطان على الحاق ادنه بحكم العزير وكتب احمد فوزي باشا الى ابراهيم باشا يفيد ان حكومة ادنه اسندت الى عهده وان امين افندي ناظر المهات الحربية اوفد خصيصاً اليه لينقل مضمون بعض الارادات الشاهانية شفاهاً^(٢٦٤) . وبعد ذلك بخمسة ايام اي في الحادي عشر من ايار سنة ١٨٣٣ ورد الى ابراهيم في كوتاهية فرمان سلطاني بتعيينه «محصلاً» على ادنه وكتابان من الصدر الاعظم رؤوف باشا ومن السرعسكر محمد خسرو باشا بانتهاء المشكلة^(٢٦٥) وبوجوب بدء الجلاء . والجدير بالذكر بهذه المناسبة ان ما يسميه المؤرخون اتفاق كوتاهية يختلف عن سائر الاتفاقات من نوعه فهو شفهي ينقصه نص معين وتوقيع طرفين متعاقدين . وجل ما هنالك من الوثائق الخطية هو فرمان سلطاني بتعيين محمد علي باشا والياً على مصر وتوابها وايالات بر الشام وجزيرة كريد وفرمان آخر بتعيين ابراهيم باشا محصلاً على ادنه وكتابان من الصدر الاعظم ومن السرعسكر يشعلان بانتهاء المشكلة .

٥ _ **هككار اسكده سي** وما كاد الصلح يتم بين السلطان وبين العزير حتى وصل الى الآستانة سفير روسي فوق العادة هو الكونت أليكسيس أورلوف صديق القيصر الخاص واخلص المخلصين له . وكان ذا هيبة ووقار لطيفاً اديباً انيقاً ماهراً في فن الاقتناع قروباً من القلب يجمع في شخصه جميع مؤهلات النجاح في التمثيل الدولي . وكان السلطان لا يزال متمعضاً من بريطانية وابنائها لقلّة اكرامهم به وامتناعهم عن اسداء المعونة له وفي الوقت نفسه كان يعتبر فرنسة والافرنسيين اصدقاء . أصفيا . لحصمه وجالب مذله فبالغ في العطف على ممثل القيصر وخرج عن التقاليد في استقباله فخطى خطوتين الى الامام لمصافحته وسمح له بالجلوس في حضرته وقدم له ولديه وشيعة حتى باب الردهة لدى

(٢٦٣) محمد علي باشا الى خليل رفعت باشا ٧ ذي الحجة ١٢٤٨ (٢٨ نيسان ١٨٣٢) : المحفوظات

الملكية المصرية ج ٢ ص ٣٠٨

(٢٦٤) ١٥ ذي الحجة ١٢٤٨ (٦ ايار ١٨٣٣) : المحفوظات نفسها ج ٢ ص ٣١٢

(٢٦٥) ابراهيم باشا الى محمد علي باشا ٢٠ ذي الحجة ١٢٤٨ : المحفوظات نفسها ج ٢ ص ٣١٢

خروجه . وأعطى السفير بسغاه في اثناء وجوده بالآستانة فقدم الهدايا الثمينة لرجال البطانة ووزع الاوسمة العديدة على رجال الجيش ويقال ان عددها بلغ اربعة وعشرين ألفاً ونوّه بالتآخي القلبي بين جنود القيصر وبجاراته وبين عساكر السلطان وأعلن ان مهمته تنحصر في الاشراف على جلاء المصريين وفي سحب الجنود الروس حالما يقطع المصريون في جبال طوروس .

وكان السلطان قد طلب الى اخيه القيصر عقد تحالف دفاعي يكون في صالح الطرفين فلبى القيصر الطلب وأوعز الى أليكسيس ان يُنجز هذا العمل . وبعد مفاوضات طويلة تمّ هذا التحالف في بيت محمد خسرو باشا ووقعه في هنكار اسكله سي في الثامن من تموز اليكسيس اورلوف وبوتانييف عن الجانب الروسي ومحمد خسرو باشا و احمد فوزي باشا والريس افندي عن الجانب العثماني . وقضت شروط هذه المعاهدة بسلم وتحالف دائم بين روسية وتركية وبدفاع مشترك عن حدود البلدين ضد اي هجوم من الخارج واحترام ما يتعلق باليونان من معاهدة ادرنة وباستعداد روسية لتأييد استقلال تركية واسداء المعونة البحرية والبحرية لها اذا هي طلبت ذلك مرة ثانية وبدوام هذه المعاهدة ثمان سنوات . وأهم ما جاء فيها شرط سريّ قضى باقفال «الدرذليل» في وجه جميع السفن الحربية الاجنبية وعدم السماح لها بالدخول مها كان عذرها وذلك في مقابل تنازل روسية عن المعونة الحربية المتوجبة على تركية . وليست هنالك اية اشارة الى اقفال البوسفور . وبعد توقيع هذه المعاهدة بيومين بدأت القوات الروسية تنسحب من العاصمة التركية .

ورأى الريس افندي (وزير الخارجية) ان يُعلم السفارة البريطانية بمحتويات المعاهدة بصورة غير رسمية . فثار ناثر بالمستون واتصل بزميله الافرنسي فاحتج على هذه المعاهدة في بطرسبرج والآستانة وذكر في احتجاجها الى الكونت نسلرود كبير وزراء روسية ان المعاهدة غيرت في علاقات روسية بتركية فصبتها «بصبغة جديدة» لا يسع بريطانيا وفرنسة ازاءها الا ان تضربا صفحاً عنها وتملأ كما لو كانت هذه المعاهدة غير موجودة . فاجابها نسلرود بان المعاهدة دفاعية محضة وانه لا يقصد منها الا الدفاع عن كيان الدولة العثمانية . ثم تناول تبدل العلاقات بين الطرفين المتعاقدين فقال ان المعاهدة استبدلت علاقات مبنية على العداء والريبة بغيرها ملؤها الاخلاص والمودة وأضاف بان القيصر متمسك بتهداته الجديدة وسيعمل بموجبها كما لو لم تعلن الحكومتان تصريحاتها الاخيرة .

وأباح نيقولاوس الاول بما في قلبه الى البرنس مترنيخ فوافقه على اتجاهه الجديد في سياسته نحو تركية ولكنه رأى ان ظاهر المعاهدة فاق نفعها الحقيقي وبات ينتظر فرصة تمكنه من

نسخ هذه المعاهدة بغيرها فتم له ذلك عند اجتماعه بالقيصر في مونشنفرايتر (١٨٣٣) حيث عقد الاثنان اتفاقاً سريعاً لحفظ كيان الدولة العثمانية وتمهدا بجمع العزير من مد نفوذه الى الولايات الاوروبية وانه اذا حصل انقلاب في نظام الحكم في الأستانة فالدولتان المتعاقدتان تتفقان على كل ظاهرة من ظواهر النظام الجديد . وظل القيصر مستمسكاً بهذا الاتفاق حتى انشلم الاتفاق الودي بين بريطانيا وفرنسة سنة ١٨٤٠ فانضم نيقولوس الى جانب المرستون^(٣٦) .

(٣٦٦) ليس افضل في هذا كله من كتاب الدكتور هارولد تمبرلي المشار اليه آفناً فليراجع في صفحاته ٦٦-٧٤ فهو اكمل واحديث وادق من سواه . وقد اقتبسنا كلام صديقنا محمد رفعت بك في بعض الاحيان كما ورد في كتابه تاريخ مصر السياسي ولا سيما ص ١٩٨-١٩٩ .

الفصل السادس

نظام الحكم في عهد العزيز

١٨٣٢ - ١٨٤١

١ - أركانه وكان العزيز يعترف بتأخر « الملة المحمدية » بتعبير ذلك العصر وبضعف الدولة العثمانية وعجزها ويوجب الصمود لطمع اوروبة وجشعها والتذرع بجميع الوسائل للوصول الى هذا الهدف النبيل . وكان يرى من واجبه ان يؤمن المباد ويعدل بينهم ويوحد قلوبهم ويزيد في انتاجهم كي يتسنى له الذود عن الملة والوطن . ولم يرَ في الوقت نفسه ما يمنعه عن الاخذ بجميع ما توصلت اليه اوروبة من اسباب الرقي للقيام بمهمته . فاستقدم من اوروبة رهطاً كبيراً من رجال الاختصاص في الحرب والسلم ووكّل اليهم أمر الاصلاح المنشود . وأرسل الوفد تلو الوفد من ابناء البلد الى اوروبة لتحصيل العلوم والفنون كي يتمكن في النهاية من الاستغناء عن الاوروبيين الغرباء .^(٢٦٧)

حمل ابراهيم رسالة والده هذه فبدأ بتأمين الامن وجدّ بادي ذي بدء في اقصاء اعداء المهدي الجديد وأحلّ محلهم من وجد فيه الكفاءة والاخلاص وأوصى بوجود «تأمين المباد وزجر المعتدين وتحاشي اسباب الجور والاعتساف»^(٢٦٨) ووضع تحت تصرف هؤلاء عدداً كافياً من الجند لتنفيذ الاحكام واحقاق الحق . ثم أمر عدداً من كبار معاونيه بالتجول في البلاد وتفقد احوال السكان . وكان والده يُبلغ عليه بهذا فكتب اليه يقول « ان التجول في الولايات الجديدة وتفقد شؤون الرعايا افضل من اصلاح الطرق ومجاري الانهار في ادنه وطرسوس»^(٢٦٩) . ومنع ابراهيم جباية « الحوة » في معاير البلاد ومساكنها . وكانت السلطات

(٢٦٧) راجع مقالنا ادارة الشام في كتاب ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا ص ١٠٧-١٠٨

(٢٦٨) كتابنا الاصول العربية ج ١ ص ٧٦

(٢٦٩) مقالنا المشار اليه ص ١٠٩

المثمانية قد غضت النظر عن جبايتها اجيالاً طويلاً فانحطت كرامتها وقل نفوذها وأصبح جباة هذه الحوة اسياداً في مناطقهم منهم آل ابي غوش في الطريق المؤدي من يافه الى القدس وآل رستم في الطريق المؤدي من اللاذقية الى حلب عبر جسر سفور والدنادشة في تل كلخ بين طرابلس وحمص. ومما قاله في هذا نص مرسوم وجهه الى قاضي القدس ومفتيها ونقيبها واعيانها وجاء فيه : « انه ليس خافيكم ان القدس الشريف يحتوي على معابد واديرة ترد لاجل زيارتها جميع املاك العيسوية والموسوية وفرقهم من كل فجّ ويقصدونها من ساير الاقطار والديار فبحسب تواردهم كان يحصل عليهم المشقات الباهظة لسبب الاغفار الموضوعه بالطرقات ولاجل اجراء الوفق بين الناس صدرت اوامرنا الى جميع المسلمين الذين في ايانة صيدا وألوية القدس ونابلس وجنين برفع هذه الاغفار من جميع الطرقات والمنازل بوجه العموم»^(٢٧٠) .

ورأى العزيز ان لا بد من جمع السلاح وتجريد السكان منه لتوطيد الامن في البلاد فأمر بذلك وشرع عماله بالتنفيذ . وما ان بدأ هذا حتى ثارت القبائل والعشائر وقد رأوا ترك ازواجهم خيراً لهم واجل واشرف من ترك بنادقهم . فكان لا بد من تجريدهم بالقوة كما سنرى في محله .

اما عن العدل فحدث عنه ولا حرج فالشام لم تنل من العدل في اي عهد مضى منذ ايام عمر بن الخطاب ما نالته في ظل العزيز . فقد قال هذا الرجل الكبير في رسالة له وجهها الى احد رجاله ناظر الجهادية : « كنت اود ان نكون قد تخلصنا من الشموذة والغفلة والرخاوة والفرس والضعيفة والمحابة التي طالما أفناها ومللناها في الايام الحالية وان يكون ذلك المهذ قد مضى وانقضى وبدلنا به عهداً يقوم على اساس الانصاف والانسانية والكياسة والعدالة والاجتهاد والغيرة بحيث يتسنى لنا نحن ايضاً ان نصرف عملنا وننجز مصلحتنا على اسلوب من اللطف والحسنى يدخلنا في مصاف البشرية الراقية»^(٢٧١) . هذا هو العزيز وهذا هو رائده في الحكم . فاذا ما ذكرنا حزمه ونشاطه ومثابرته ومتابته لما يصدر عنه أدركنا قيمة هذا القول واثره في توجيه القضاة ورجال الادارة والجيش .

وفهم العزيز عقلية شعبة فهماً تاماً فأمر بشدة العقاب وسرعة التنفيذ جاءلاً من احكامه وتنفيذها عبرة لمن يعتبر . ومثال ذلك انه عندما تشاكى كبار الموظفين انتشار الرشوة في دوائرهم في بر الشام أمر العزيز بالثبث مما يقال وسمح بالشتق عند ثبوت الجرم فنفذ حكم

(٢٧١) كتابنا الاصول العربية ج ١ ص ٨٧-٨٨ راجع ايضاً المحفوظات الملكية المصرية ج ١ ص ١٨٨

(٢٧٢) المحفوظات الملكية المصرية ج ١ ص ٩٦

الاعدام اكثر من مرة في اناس ثبت عليهم هذا الجرم . قال ابراهيم في كتاب له الى سامي بك الباشماون : « ستعلمون عندما تقرأون اوراق نعوم نوفل ان اهل عربستان مياون جدا الى اعطاء الرشوة ومراعاة الحواطر حتى أدى ذلك الى اكتشاف خبائة بعض المسلمين ومحاسبتهم وعزلهم . وقد تحملنا في سبيل انقاذهم من بلية الرشوة كثيراً من العناء . ولكننا لو تركناهم على حالهم لحضروا في السلب والنهب خوض المتقدمين على الاغارة » (٢٧٢) .

وقال العزيز بوجود توحيد القلوب فقام ابنه بنفذ هذه الرغبة السامية وكتب في اوائل عهده في بر الشام الى متسلم اللاذقية يقول : « والتعرض الى الرعايا وعدم مؤاساتهم هذا مخالف لرؤانا لان الاسلام والنصارى جميعهم رعايانا وأمر المذهب ما له مدخل بحكم السياسة فيلزم ان يكون كل مجاله المؤمن بجري اسلامه والعيسوي كذلك ولا أحد يتسلط على أحد » (٢٧٣) . واحترم العزيز زعامة الدروز والنصارى في لبنان وخارجه احترامه لزعامة اخوانهم المسلمين . ولم يتأخر قيد شعرة عن ترقية الدروز والنصارى عند ثبوت الاستحقاق . فعين لدى وصوله الى عكة الشهابي الكبير « مديراً لمصالح البلاد » وقال عنه سراً لا يوجد عندي في بر الشام رجل بمعنى الكلمة سوى هذا الرجل الشهم . وحيث انه أظهر هذه الصداقة والأمانة فلا يهنا قط اكثر عدد الاصدقاء ام قل . وعرض عليه فيما بعد حاكية بر الشام باكلها فرفض الشهابي وكان ما كان من امر ترشيح محمد شريف باشا كما سئى (٢٧٤) . وورق الى رتبة البكوية حنا مجري وهو نصراني ونعمان جنبلاط وخطار الهاد وعبد السلام الهاد ونصيف ابو نكد وهم دروز (٢٧٥) . ومما يروى من هذا القبيل انه لدى قدوم ابراهيم باشا الى دمشق في دورة تفتيشية لفت حنا مجري بك نظر « ولي النعم » الى ان المسلمين من اعضاء مجلس الشورى في دمشق لا يظهرون له ما يستحقه من الاكرام والاحترام وعزا ذلك الى كونه مسيحياً لا يدين بدين الاسلام . فقال ولي النعم قل لاعضاء المجلس اني راغب في زيارتهم في المجلس وأخبر القاضي المفتي والتقيب بذلك وبوجوب حضورهم الى المجلس . ففعل . ولدى وصول ولي النعم الى المجلس وقف في الباب والتفت الى الورا . وقال الى حنا مجري بك : « مجري بك مجري بك بيوركر افنديز بيوركر » ومعناه مجري بك تفضلوا يا افندينا . فامثل

(٢٧٢) المحفوظات الملكية المصرية ج ٣ ص ٦٩ - ٧٠

(٢٧٣) المحفوظات نفسها ج ٢ ص ١١٧

(٢٧٤) المحفوظات كذلك ج ١ ص ١٧٦ و ج ٢ ص ٨٦

(٢٧٥) المحفوظات نفسها ج ٤ ص ٤٧٢ - ٤٧٣

بحري بك ودخل القاعة قبل الباشا . وعندئذ وجه الباشا كلامه والناس وقوف الى بحري بك مرة ثانية قائلاً : « بحري بك اوتوركر افنديز » ومعناه اجلسوا يا افندينا وبالجمبع لزيادة التوقير . ثم التفت الى الاعيان فقال : « قاضي افندي اوتور - بالمفرد - مفتي افندي اوتور نقيب افندي اوتور وهكذا الى النهاية . فاعتبر الاعيان واظهروا بعد هذا ما كان يستحقه بحري بك وغيره من اكرام واحترام ولم يترددوا البتة . وسمح العزيز وابنه ابراهيم بتدعيم الكنائس والاديرة وبانشاء الحديد منها وغضاً الطرف عن ارتداد ثلاثة من الموارنة كقولهم قد قبلوا الاسلام فاستمالا قلوب « الرعايا » وخطأً فصلاً جديداً في تاريخ حرية المعتقد في الشام . ولكنها لم يسعها بتنصر بعض الدروز خوفاً من اساءة الفهم واستفزاز الجمهور^(٢٧٦) . وعاقب محمود نامي بك جد الداماد احمد نامي بك ومحافظ بيروت آنئذٍ بعض مسلمي بيروت لانهم تفوهوا ببعض كلمات غير لائقة بحق النصارى^(٢٧٧) . ورأى العزيز ان يجتهد النصارى ليعيد الدول الاوروبية عنهم وعن اثاره الفتن بواسطتهم وليزيل عداوة المسلمين ويوطد صداقتهم^(٢٧٨) . ومن الوسائل التي تدرج بها العزيز لتوحيد القلوب انه لم يفرق الشام بالموظفين المصريين ولم يرسل من وادي النيل الا من استوجبت الضرورة ايفاده . ومن ذلك ان أمر محمد شريف بك الحكمدار ان يُسند متسلمية دمشق الى احد اعيان هذه البلدة او الى مصري « اذا تعذر وجود كفوف لها من الدمشقيين انفسهم^(٢٧٩) » . وقال ايضاً في كتاب ارسله الى سليمان باشا انه عين حراس الصحة في المراكب المسافرة الى بر الشام من ابنا . مصر لانه لم « يجد من هو اهل لذلك من الشوام انفسهم^(٢٨٠) » . وخرج في الوقت نفسه عن تقاليد الادارة في مصر فوافق على ترقية البارزين من اولاد العرب حتى الرتبة يوزباشي . وذهب ابراهيم الى ابد من هذا فأكد لوالده ان نسبة المخلصين من العرب أعلى من نسبة غيرهم من زملائهم الاتراك واقترح ترقية بعض العرب الى رتبة بكباشي^(٢٨١) . ونوه بفضل العرب على المدنية وقال في ظروف خاصة انه اتى مصر طفلاً وان شمسها غيرت دمه فجرى عربياً^(٢٨٢) .

وفرق العزيز في سياسته الداخلية بين وطني آمن وبين أجنبي طامع فשל الاول بعطفه

(٢٧٦) المحفوظات كذلك ج ٣ ص ٤٤٤ و ٢٨٥ و ٢٨٨ و ٢٩٥ و ١٣٧

(٢٧٧) المحفوظات ايضاً ج ٤ ص ٤١٥-٤١٦

(٢٧٨) المحفوظات نفسها ج ٤ ص ٤٢٦

(٢٧٩) المحفوظات ايضاً ج ٢ ص ٢٨٠

(٢٨٠) المحفوظات ج ٣ ص ١٢٣

(٢٨١) المحفوظات ج ٣ ص ٦٧ و ج ٤ ص ٤٦٠

(٢٨٢) كتابنا اسباب الحملة المصرية ص ٦٤-٩٥

وحدد بطش الآخر . فوافق مثلاً على السماح لتابع قنصل انكلترة في رودوس باستخراج الاسفنج من مياه الشام . ولكنه رأى ان يمنع عن ذلك اذا كانت هذه المصلحة بيد رجل وطني . وأوجب منح التجار الوطنيين الامتيازات نفسها التي تتمتع بها التجار الاجانب . وساوى بين الوطنيين وبين الاجانب فسمح للوطنيين بتصدير بضائهم من مرافق بر الشام . وجاء في رسالة من المية السنية الى ابراهيم باشا انه لا يمكن اثبات الاجنبي المتجنب على مصالح البلاد وانه نظراً لتصلب اسكواره بك في رأيه واستنثاره بشؤون مدرسة المدفعية تقرر تشكيل لجنة من خريجي مدارس اوروبية من ابناء البلاد للنظر في تنظيم المدارس^(٢٨٢) .

وعُني العزيز بالحفاظة على ثروة البلاد وزيادة انتاجها . وسعى سعياً حثيثاً للوصول الى مرحلة معينة من التطور الاقتصادي ليتمكن فيها من الاستغناء عن اوروبية . ولذا فانه لم يبرحاً حؤف ابنه من تسرب النقود الى الخارج لان الشام ستقدم له من الفحم والحديد والخشب ما يستغني به عما يستورده من اوروبية ولانه يأمل ان يكفي بر الشام مؤونة الشيت والملبوسات بفضل ما كان يقوم به من تنظيم للصناعة بحيث لا يبقى القطر الشامي بحاجة الى منتوجات البلدان الاجنبية^(٢٨٤) . والواقع ان العزيز ألح منذ بدء حكمه في الشام بوجود ارسال عشرين او ثلاثين صيياً من بر الشام الى مصر لتعلم صنع الجوخ والطرابيش ولادخال هذا الفن الى بلادهم لتتحول ارباح الاجانب من هذه البضاعة الى ابناء البلاد^(٢٨٥) . ثم وافق على انشاء معمل لصنع العباءات في عكة فصور^(٢٨٦) .

وكان ابراهيم يعير الزراعة شطراً وافياً من اهتمامه الشخصي فتراه يستطلع رأي الجناب العالي هل يسمح باعفاء من يجي الاراضي المهولة بغرس الاشجار والنب من الاموال تشجيعاً له ام لا^(٢٨٧) ونرى اللواء احمد بك يكتب الى ابراهيم نفسه مبيناً عدد القرى والمزارع التي تم احياؤها حتى السنة ١٢٥٢ فيقول ان عددها في جهات حلب وحدها بلغ الرقم ٨٥ . ونلس في موضع آخر وصول بعض رجال الاختصاص الذين درسوا الزراعة في فونسة الى فلسطين والتحاقهم بمصلحة تطعيم الاشجار^(٢٨٨) .

(٢٨٣) المحفوظات الملكية المصرية ج ٢ ص ٢٨٨ و ج ٣ ص ١٨٨ و ٧٩

(٢٨٤) المحفوظات ايضاً ج ٣ ص ١١٢-١١٣

(٢٨٥) المحفوظات نفسها ج ٢ ص ٣١٣

(٢٨٦) المحفوظات كذلك ج ٢ ص ٣٣٥

(٢٨٧) المحفوظات ايضاً ج ٢ ص ٣٨٦-٣٨٧

(٢٨٨) المحفوظات ج ٢ ص ٣٢٦ اطلب ايضاً فيما يتعلق بالزراعة في حلب ج ٣ ص ١٤٣

ولس ابراهيم ظلماً لحق الفلاح والمزارع من جراء تلزيم الضرائب فكتب الى الباشماون وجوب النفا. التلزيم وجباية الضرائب مباشرة وقال: «اني لم اقصد من طرح هذه الضرائب مباشرة جلب وفر لجانب الميري فقط بل اني رأيت في ذلك نفعاً وسهولة يعودان على الجانبين معاً. فقد تيقنت ما يلقاه الاهالي من الظلم والجور والاذى والحسارة من الملتزمين حين ياتون الى القرى التي التزموا عشرها ويقيمون فيها. فأكول الملتزم ورجاله وعليق دوابهم ومأكول معارفهم الذين يرون عليهم في اثناء السفر جميع هذا على حساب الاهالي. وليس بإمكان هؤلاء. ان ينقلوا غلالهم من البيادر ما لم يسمح الملتزم بذلك. فقد تبقى هذه الغلال على يادها حتى الحريف فتعرض للتلف والفساد من جراء سقوط المطر. ولو فرض حدوث مظالم وأكل حقوق بموجب النظام الجديد فانه سيكون نادراً كما اننا لا ننجهم عندئذ عن اجراء التحقيق اللازم. ولقد سألت شيوخ القرى بين الشام وحلب جرمانوس لدى مروره في قراهم اننا سمعنا ان ضرائب الشر ستطرح على الاهالي بالمطوعية قتل لنا ماذا تم»^(٢٨٩).

هذه نماذج من اقوال العزير وابنه ورجاله. وهي لا تحتاج الى الكثير من الحرح والتعديل فهي اقوال المسؤولين عن اعمالهم وقد دونت في زمن وقوعها ولم تقصد بها اية دعابة لانها كانت سرية او على الاقل غير مباحة للجمهور.

٢ - هيكلمه
ولا بد قبل الخوض في الكلام عن هيكل الادارة في عهد العزير من اجلاء امرين اساسيين هامين اولهما حدود بر الشام والثاني صلاحيات العزير. والشام في عرف العزير شملت ايالات حلب ودمشق وطرابلس وصيدا وتوابعها. بيد ان قلة الثقة بين العزير وبين السلطان ادت الى مفاوضات شاقة حول الحدود الشمالية الشرقية. وهناك غموض ونقص في المراجع يضيع معها الباحث فيختار في امره. وجل ما يمكننا ان نقوله الان هو ان الفرات كان بوجه اجمالي الحد الفاصل بين العزير وبين السلطان في الشرق وان عنتاب وكلس وكورد داغ وقوا جميعاً ضمن الحدود المصرية. والامر الثاني هو ان العزير بقي من الناحية القانونية حتى اخر عهده في بر الشام والياً من ولاة السلطنة يحكم بموجب امر سلطاني يوجه اليه سنة فسنة. واكن الواقع الذي لا جدال فيه هو ان هذا الوالي كان اقوى ولاة السلطنة واجدرهم بالحكم. وانه كان يضاهي السلطان نفسه قوة وعزة ومجداً وقد تمكن بالفعل من قهر اهل الشام والسلطاني ومن اسرقائده الصدر الاعظم نفسه ومن املاء شروطه على السلطان.

ولم يختلف رأي العزيز في نفسه وفي صلاحيته عما تقدم . فهو المرجع الاعلى في الحكم وحكمه لا يرد . ولكنه رأى ان يُشرك الاعيان في الحكم فيستشيرهم في كثير من الامور ويحتفظ بالرأي الاخير لنفسه . ومن هنا مجالس المشورة التي انشأها في المدن وامهات القرى « لسماح جميع الدعاوى واحالة الشرعية منها الى قضاة الشرع وفصل الادارية السياسية منها باتفاق الاراء . واحالة القرارات النهائية الى المسلم لتنفيذها»^(٢١٠) . ورأى العزيز ان يُراعى في تشكيل هذه المجالس مبدأً تمثيل الطبقات والطوائف فجعل مجلس دمشق مثلاً مؤلفاً من « الاكابر والاعيان وابناء البيوت والتجار واغاوات الحارات » وانتقى اثنين من وجوه النصارى فأجلسها لأول مرة في تاريخ الشام جنباً الى جنب في هيئة حكومية مع اخوانهم المسلمين . ورأى ان يذهب الى ابعد من هذا في تمثيل النصارى في بيروت فجعل مجلسها مؤلفاً من ستة من المسلمين وستة من النصارى . واليك اسما اعضاء هذين المجلسين : مجلس دمشق - حافظ بك العظم وسليم افندي الكيلاني ومحمد افندي العاجلاني ونسيب افندي حمزه وعلي اغا الترجمان وصالح اغا المهابني وعلي اغا خزينة كاتبه وعبد القادر اغا كيلاهلي واحمد افندي البكري واحمد افندي المالكي وراغب افندي الحسيني واحمد افندي أنس وجيمهم في نظر العزيز من الاكابر والاعيان فابناء البيوت . وابراهيم بك المسودن والحاج نعمان اغا الباشجي والشيخ سعيد العطار والحاج ابراهيم البتولي من التجار . وصيامي اغا الحكيم وحمو اغا الكبير ومحبي الدين اغا خير وعبد القادر اغا الخطاب من اغاوات الحارات . والحواجه روفائيل الصراف والحواجه مخائيل كحيل من النصارى . اما مجالس بيروت فانه تالف من السيد عمر بيهوم والسادات احمد العريس وحسن البربري وامين رمضان واحمد جلول عن المسلمين ومن الحواجات جبرائيل حمصي وبشاره نصرالله والياس منساً ونصيف مطر ويوسف عيروط وموسى بسترس عن النصارى^(٢١١) .

وكان على رأس الادارة في بادئ الامر ابراهيم باشا نفسه . وعندما ازدادت مشاغله

(٢٩٠) عن اصل ضائع . راجع ترجمته الى العربية في نفوس النبل لامين سامي باشا ج ٢ ص ٤٠١ اطلب ايضاً الناية من تشكيل مجلس قونية : المحفوظات ج ٢ ص ٢١٩ . وفي علاقة المسلم بالمجلس راجع كتابنا الاصول العربية ج ٣ ص ٢٢٧ . وكان ابراهيم يتمثل الاصطلاح بمجلس المشورة بمعنى اوسع في بعض الاحيان . اطلب المحفوظات ج ٣ ص ١٧٠

(٢٩١) حروب ابراهيم باشا المصري للنس انطون الحلبي ج ١ ص ٣٧ واسما اعضاء سائر المجالس موجودة في المحفوظات - حاب مثلاً ج ٣ ص ٨٤ و ج ٣ ص ١٧٨

المسكوية جعل الشهابي الكبير «مديراً للصالح» يختم الأوراق التي يجب ختمها من الباشا^(٢١٢). ثم رأى القائد الفاتح ان يفصل ادارة البلاد عن قيادة الجيش وان يعين حاكماً عاماً لهر الشام وعرض هذا المنصب الرفيع على الامير الشهابي حاكم لبنان فاعتذر. وعندئذ كتب الى والده يقترح تعيين محمد شريف بك كتحدا العزيز وحاكم الصعيد آنئذ. فوافق العزيز على اقتراح ابنه ابراهيم وقبل الكتحدا المنصب الجديد وغادر مصر الى اركلي فقابل ابراهيم باشا وعاد منها الى دمشق فوصلها في السادس والعشرين من جمادى الاخرة سنة ١٢٤٨ وجعلها مركز ادارته^(٢١٣). وكتب الى اعيان البلاد يقول «لا خضامك ما فاضت به مجور احسانات سعادة افندينا ولي النعم الحديوي الاعظم عزيز مصر المعظم دام ما دام العالم وذلك بتفويض احكام ايالات الاقطار الشامية لمهدة عجزنا. وبحسب صدور الارادة السنية الحديوية قد حضرنا الى هذه الجهات وبمنه تعالى قد تيسر دخولنا المحروسة الشام نهار الاثنين المبارك الواقع في السادس والعشرين منه. وقد تليت الاوامر الشريفة بديوان الشام وصار ذلك معلوم الخاص والعالم. فلزم تحرير طرسنا هذا اشعاراً لكم ليكون معلومكم ان جميع مراجعات مصالح الاحكام قد تحولت مناظرتها لنا ومن الان وصاعد تكونوا متقيدين بصدق الخدمة وحسن الاستقامة»^(٢١٤). وعاون الحكمدار في مهمته هذه «ديوان حكمداري» مؤلف من عدد كبير من الكتبة والتراجمه ورجال الاختصاص منهم الشامي والمصري^(٢١٥). وأبقى العزيز التقسيمات الادارية العثمانية القديمة ولكنه استعاض عن كلمة ايالة بكلمة مديرية فقسم بر الشام الى مديريات اربع حلب ودمشق وطرابلس وصيدا واتبعها جميعا بالحكومة الحكمدارية في دمشق. وجعل على راس كل مديرية مديراً يمثل السلطة المركزية فيها فعين اسماعيل عاصم بك احد انسابه مديراً في حلب ويوسف اغا شريف بتشديد اليا. مديراً في طرابلس والشيخ حسين عبد الهادي مديراً في عكة وألحق مديرية دمشق بالحكمدار نفسه. وعين الى جانب الحكمدار في دمشق يوحنا مجري مديراً عاماً للالياسة وأحاطه فيما بعد بديوان عام ينظر في مالية بر الشام. وبقيت المديريات (الايالات السابقة) مقسمة الى متسليات ومقاطعات وعلى راس كل متسلية متسلم يمينه الحكمدار وعلى راس كل مقاطعة شيخ او اغا او بيك يتولى

(٢١٢) ابراهيم باشا الى محمد علي باشا ١٩ شبان ١٢٤٧ : المحفوظات ج ١ ص ١٧٦

(٢١٣) المحفوظات ج ٢ ص ٨٦ و ٨٩ و ٩٩ و ١٠٠

(٢١٤) غاية جمادى الاخرة سنة ١٢٤٨ (٢٣ تشرين الثاني سنة ١٨٣٢) : كتابنا الاصول العريسة

ج ٢ ص ٥٠-٥١

(٢١٥) المحفوظات ج ٢ ص ٢٥٧ و ٣٠٨ وغيرهما .

امورها بالتوارث . وبقي الى جانب كل متسلم صراف يمثل المالية ويسمى لحماية مصالحها ومباشر يجي اموالها وناظر في كل قرية للناية نفسها^(٢٩٦) .

واحتفظ لبنان بامتيازاته القديمة فبقي مستقلاً عن المديرية الثلاث المحيطة به . وأضاف الى هذه الامتيازات انه اصبح مرتبطاً مباشرة بالعزيز دون وساطة المديرين او الحكمدار فحقق اميره ما صبت اليه نفسه في اواخر عهد الجزائر عندما اتصل بالصدر يوسف ضيا باشا ورجاه ان يربطه بالباب العالي مباشرة كما سبق فأوضحنا . ودليلنا على هذا ان الحكمدار يقول في احدى رسائله الى ابراهيم باشا انه كتب يستعلم عن محل اقامة الامير فندي فتبين له انه مقيم في مشرفة وان هذه ضمن حدود لبنان فأوقف فرسانه عن الملاحقة واكتفى بعرض الحالة على الاعتاب السنية فأجابه العزيز: « يجب ان تشمر الامير بشير عن نقل اليك اخبارك »^(٢٩٧) . وهناك دليل آخر فانه عندما اوشك حكم العزيز ان ينتهي وبدأت اصابع الدول تلعب في لبنان كتب ريتشارد وود عميل بريطانية الاكبر الى الامير بشير الثاني الكبير ما نصه : « لم يجب تحشو من وجه كون الارباع دول المشار اليهم يتهدوا بان يعطوا لجيل لبنان تلك الشرايع والحرية السالفة مع الانعامات التي كانت تتمتع بها الاهالي تحت احكام السلاطين^(٢٩٨) » .

وكان يوم الشام في مطلع كل سنة قضاة ثلاثة يعينهم قاضي العسكر ليتولوا القضاء في حلب ودمشق والقدس فاما ان يعودوا من حيث اتوا في اخر السنة او ان تجدد ولايتهم سنة تالية . وكان العزيز فيما يظهر قليل الثقة بهؤلاء . يخشى تدخلهم في السياسة فأمر ان يراقبوا مراقبة شديدة وان يعرضوا احكامهم على الحكمدار او المدير قبل اصدارها^(٢٩٩) . ويستدل من بعض الاوراق الباقية ان العزيز كان يتدخل في تعيين نواب الشرع بشكل ليس بالامكان تحديده^(٣٠٠) .

وأراد ابراهيم اصلاحاً حقيقياً فرقب الادارة الجديدة رقوباً شديداً وتفهم
٣ - اصوله
ضعفها فكتب مراراً وتكراراً الى القاهرة يشكو الاضطراب الذي وقع في هذه الادارة ويعزو ذلك الى اعمال الموظفين وانصرافهم الى ملذاتهم وشؤونهم الشخصية وبين هؤلاء . محمد شريف باشا نفسه واسماعيل عاصم بك . وتولى تفتيش الادارة بنفسه فألقاها ملوثة تلويثاً ووجد مجري بك مهملاً ولس تراكم اعمال المجلس في دمشق سنة ونصف سنة

(٢٩٦) المحفوظات ايضاً ج ٣ ص ١٠٢-١٠٣ و ٢٤٦-٢٤٧ و ٢٤٨

(٢٩٧) المحفوظات كذلك ج ٦ ص ١٩٠

(٢٩٨) المحفوظات ج ٦ ص ٤٣٢

(٢٩٩) المحفوظات ج ٢ ص ٣٨٣

(٣٠٠) المحفوظات ج ٢ ص ٣١٩

فأمر بجسب اعضائه في قاعة المجلس الى ان يتموا رؤية الشؤون الموقوفة ا وشكى ارتباك الامور في مديرية صيدا فأفاد ان رجلاً اتى اليه وادعى انه بإمكانه ان يثبت ان مسلم غزة اختلس ما لا يقل عن الفمي كيس وانه قرر ان يقضي فصل الشتاء في هذه المديرية للاعتناء بشؤونها . وكتب في احدى رسائله الى معاون العزير يقول : اخي تعلمون اني مريض اتمتع بالصحة يوماً فينتابني المرض يومين واني انتقل من محل الى اخر لاخلد الثورات التي تظهر بدون انقطاع ولذا فاني لا اقدر على ادارة الشؤون العسكرية والمدنية في آن واحد . فلا بد والحالة هذه من تعيين شخص يكرس وقته للشؤون المدنية . واني ارى في شرعي افندي خير من يقوم بهذه المهمة . فاذا وافقت الارادة السنية على تعيينه قام هو بالتفتيش وقمنا نحن بتفتيش آرائه^(٢٠١) .

والغريب المستغرب ان هذا القائد العظيم شكى كل هذا ولكنه لم يربط بينه وبين تاخر مرتبات الموظفين تاخراً قد لا نجد مهراً له . قال ابراهيم في الرد على خطاب التمس فيه الحكمدار صرف مرتبات نظار المستودعات مرة كل اربعة اشهر قال : ايها الباشا اذا كان لهؤلاء طلب فلنا واحد وعشرون مرتباً . وقد كتبت اليك غير مرة في مسألة النقود وكانت تأتي منك كتب يحتوي كل منها اربع مئة سطر لا ذكر فيها للنقود . وهل يرضى الله تعالى ان ينام الناس في احضان ازواجهم ويظل الجنود التعماء تانهن في الجبال وبين الصخور وليس لديهم نقود . وكتب الى الامير بشير في الموضوع نفسه ما نصه : «وردت ورقتكم المتضمنة خصوص استنظار العيسوية من شان صدقه . يا مير يلزم في هذا الحصوص تحلم علينا . في الواقع يقولوا الصدقات ترد البلا وتريد العمر . ولكن في حقنا السكر بقالمهم واحد وعشرين شهر لم اخذوا نصف فضه » . وقال يجري بك في كتاب رفعه الى ابراهيم باشا : ان الموظفين المالكين مثل المسلم والكاتب اصبحوا في حاجة الى قوتهم اليومي من جراء عدم صرف مرتباتهم الموقوفة . وحيث انهم اصحاب اولاد وليس لديهم مورد رزق آخر فلا يبعد والحالة هذه ان يفقدوا عن اداء الواجب وان يدعوا بدافع الضرورة ايدي الصبث والتطاول الى مصالح الاميرية المحولة الى عهدتهم والى اموال الاهالي . ولذلك فاني اقترح ما يأتي : يصرف مرتب شهرين لمن اوقفت مرتباتهم ستة اشهر ثم يصرف مرتب شهر واحد في كل شهرين كما هو جارٍ مع افراد الجيش^(٢٠٢) .

وتقدم يجري بك باقتراح لاصلاح ادارة المالية جاء فيه ما يلي : ا تحديد المبالغ المطلوبة

(٢٠١) المحفوظات ج ٣ ص ٤١٧-٤١٨

(٢٠٢) المحفوظات ج ٤ ص ٢٦-٢٧

من كل مديرية ومدينة وقرية وطبعها يوضح في دفاتر معينة وطبع غيرها للمحاسبة وتعليم خطباء القرى وفقهاها استعمال هذه الاوراق والدفاتر وتعيين خطيب لكل قريتين او ثلاث وتعيين معاون لكل خمسين قرية يشرف على اعمال الخطباء. وكاتب يقوم بتعليمهم عند الحاجة. ٢ مراقبة القرى وحمايتها من جور التجار واعتداء اصحاب القوة والاعتدار وشذوذ الموظفين واستخفافهم بالقانون ٣ اعداد دفاتر خاصة يوضع على راس كل صحيفة منها رقما المتسلسل وتحتم بخاتم ديوان الحكومة وتوزع على الجهات التي تستعمل فيها. ٤ الاهتمام بضبط المكاييل والموازين وابطال ما كان مختلا منها. ٥ جرد النقود الموجودة لدى الصيارفة في اوقات غير معلومة وفحص حساباتهم^(٢٠٢). تقدم مدير المالية بهذا الاقتراح ولكننا لانعلم ماذا تأتى عنه.

وشاء العزيز ان يدفع عنه اعتراضات قناصل الدول واحتجاجاتهم فأرى من الحكمة ان يولج اوروبياً مثلهم النظر في امورهم وامور رعاياهم فهد بذلك الى سليمان باشا الفرنساوي . وبدأ هذا يضبط هوياتهم وطبق قوانين التجول المتبعة آنذ في اوروبه . فعرض على كل اجنبي الاتصال بقنصله لدى وصوله الى بر الشام للتأشير على جواز سفره وأوجب مثوله امام السلطات المحلية للحصول على شهادة هوية يهرزها عند الطاب^(٢٠٤) . وكان ابراهيم باشا قد عهد الى اسماعيل عاصم بك مدير حلب بمراقبة الحدود التركية وتنظيم شبكة لنقل اخبار الخصم داخلها . فلما بدأت علاقات العزيز مع السلطان تتأزم من جديد انشأ ابراهيم باشا قلم استخبارات عسكرية برئاسة المسؤول اليه رئيس الاستخبارات بجزيرة كورسكه^(٢٠٥) . وُعني ابراهيم ايضاً بتحسين المواصلات ولاسيما بتنظيم البريد العسكري وقسمه الى قسمين عادي ومستعجل فكانت رسائله المستعجلة تصل من بلبك الى مصر في ستة ايام^(٢٠٦) . ثم اراد ابراهيم ان يخدم الجمهور فامر باعداد مشروع خاص لانشاء بريد عام ينقل رسائل الجمهور . وما ان علم قنصل بريطانية بذلك حتى احتج مديعياً ان انشاء بريد عام يضر بالبريد الانكليزي الذي كان يصل بيروت بدمشق . فاستدعى العزيز قنصل بريطانية العام اليه وفأوضه في الامر فوعده بالتدخل . فأمر العزيز ابنه ابراهيم بوجود المضي بالعمل واجراء ما يلزم^(٢٠٧) . وقبيل انتهاء حكمه في الشام أمر العزيز بانشاء ابراج للإشارة بين مصر والعريش

(٢٠٣) المحفوظات ج ٤ ص ٢٧-٣١

(٢٠٤) المحفوظات ج ٢ ص ١٥٢

(٢٠٥) المحفوظات كذلك ج ٣ ص ٤٤١

(٢٠٦) المحفوظات ايضاً ج ٤ ص ٤٤٧

(٢٠٧) المحفوظات ج ٤ ص ٢٨٨ و ٢٩٨ و ٣٠٨

وبين العريش وعكة^(٣٠٨). وكان سليمان باشا الفرنساوي قد اقترح على سامي بك معاون العزير انشاء طريق تصل بيروت بدمشق وطريق غيرها تربط قرنايل ومناجها ببيروت^(٣٠٩).

٤ - مكاتبه في هذا هو نظام الحكم في بر الشام في عهد العزير ومميزاته الكبرى القوة وال ضبط والعدل . قال ابراهيم في عرض الكلام عن مرعش واورفه :
 تاريخ بر الشام انني في خلال المدة التي وليت فيها القيام بخدمه الجناح العالي الحديوي لم اتسبب في اذية اي انسان ولم اعمد الى ايقاع الضرر بملك او مال اي فرد من الناس . وهذا امر يعرفه جميع اولي الابصار كما يعرفه جميع اهالي البلدان التي جبتها واهالي البلدة التي اقيم فيها الان . ولما كنت اعامل الضباط والعساكر حسب نصوص القوانين ولا احيد عنها في علاقتي معهم قيد شعرة فقد اقتفوا هم ايضاً اثرى ولم ينحرفوا عن هذه القوانين . اني وان كنت لم آت بعد اورفه فانني منذ عشرة اشهر اقيم في مرعش . ولقد أعلن وجوه الاهالي في مرعش المرة بعد المرة انهم لم يتمتعوا طيلة حياتهم بمثل حكمنا العادل . اعلنوا هذا في اسواق البلدة وفي جامعها الكبير وهم يقولون لقد كانوا في العهد السابق يستولون على ما في بيادنا من غلال وينهبون اثار بساتيننا . وهب الله سلطاننا العمر الذي لا يفنى وعساه الا يحرمنا من وزيرنا هذا العادل اي العزير نفسه ذلك اننا لا نعاملهم كما كانوا يعاملون قبلاً من حيث التجني عليهم واتهامهم بدون حق لغرض ما . والاهالي الان يؤدون الوركو على نحو ما هو مسجل في سجلات المحاكم لا اكثر ولا اقل . انني ادفع اثمان جميع حاجياتي اللهم الا ايجار المنزل الذي اقيم فيه وثمان الماء الذي اشترته . وانا متكفل امر استقامة العساكر وحسن سيرهم^(٣١٠) . نقول هو منتهى الاحساس بالعدل ولو صيغ بقالب فصيح بليغ لاصبح نهراس الحكم والاحكام كما صار عهد ابقرط اليمين التي استوثق بها الاطباء .

ومن مميزات هذه الحكومة وهذا النظام انها كانت تميل الى المشاورة في الامور قبل ابرامها وانها كانت متنورة تحب العلم وتشجع طلابه . ولعل ايهج هذه المميزات واقربها الى نزعة العرب في هذه الايام انها سبقت اخواتها في العالم العربي الى العروبة . فقدمت الوطني على الاجنبي وعينت بطبع الكتب العربية وقبلت العرب في الوظائف الهامة وقللت الاتراك .

(٣٠٨) المحفوظات كذلك ج ٤ ص ٤٥٨

(٣٠٩) المحفوظات ج ٣ ص ١٦٨

(٣١٠) ابراهيم باشا الى محمد علي باشا اوائل محرم سنة ١٢٥٦ (حوالي منتصف اذار ١٨٤٥) :

المحفوظات ج ٤ ص ٣٠٤-٣٠٧

مضامين الكتاب

٥٦	قضية عبدالله باشا
٥٨	حيلة العزيز
٥٩	القوى المتقاتلة :
٥٩	جيش العزيز واسطوله
٦١	جيش السلطان
٦١	سير القتال
٦١	قيام الحيلة
٦٢	حصار عكة
٧٧	فتح دمشق
٨١	موقعة حمص
٨٣	ييلان
	مؤخرة الجيش الفاتح -
٨٧	في الاناضول
	الفصل الخامس : كوتاهية
٨٩	وهنكار اسكله سي
٨٩	السلطان يطلب المعونة
٩٠	التدخل الروسي
٩٢	موقف الدول
٩٣	اتفاقية كوتاهية
٩٤	هنكار اسكله سي
	الفصل السادس : نظام الحكم
٩٧	في عهد العزيز
٩٧	أركانه
١٠٢	ميكله
١٠٥	اصلاحه
١٠٨	مكاته في تاريخ بر الشام

١	كلمة المؤلف
	الفصل الاول : لبنان
٢	حدوده
٢	حكومته
٦	احزابه السياسية
٧	سياسته الداخلية
١٣	سياسته الخارجية
	الفصل الثاني : الايالات الشامية
١٨	نظام الحكم
٢١	واقع الحال
	الفصل الثالث : التدخل اللبناني
٢٦	المخطر السعودي
٢٩	احتلال دمشق
٣١	التروح الى لبنان
٣٢	البقاع ارض لبنانية
٣٣	في دمشق ثانية
٣٥	الباب العالي
٣٧	حصار عكة - موقف العزيز
٤٠	الموره
٤١	سانور
	الفصل الرابع : العزيز
٤٥	والسلطان
٤٥	محمد علي
٤٧	اسباب الحروب :
٤٧	طموح العزيز
٥٥	موقف الباب العالي

أنجزت المطبعة الكاثوليكية في بيروت
طبع هذا الكتاب في الحادي والثلاثين
من شهر كانون الاول سنة ١٩٦٦